ست نساء وستة رجال

يوسف السباعى

يطلب من مكتبة مصر
٣ كامل صدقى - الفجالة

مقدمة

اليكم ست نساء وستة رجال ·· تتمة للاثنى عشرة امرأة والاثنى عشر رجلا · وبقية من هؤلاء وهؤلاء لم يتسع لها الكتابان السابقان ·

وانى لأذكر عقب ظهور كتاب اثنتى عشرة امرأة أن كتبت الدكتورة ابنة الشاطىء فى نقد الكتاب تقول ما معناه : إنه كان أولى بى أن أقصر كتابتى على الرجال لأنى كرجل أدرى بفهم مشاعرهم وتحليل نفوسهم ، وأنه كان يجب أن أترك الكتابة عن النساء لواحدة منهن لأنها أعرف بخباياهن وأعلم بأحاسيسهن ·

وصمت حينذاك ·· ولم أحاول المكابرة وقلت لنفسى ·· من يدرى ·· ربما كانت على حق · ثم أصدرت بعد ذلك كتاب اثنى عشر رجلا ·· فأقرته فى نقدها ·

وكان الأولى بى بعد هذا ألا أعود الى الكتابة مرة ثانيـة عن النساء وألا أتبع الاثنتى عشرة بست أخر · ولكنى مع ذلك غامرت باصدار كتابى هذا ·· لأنى أشعر فى نفسى أنى قد أكون أكثر فهما للنساء من أنفسهن ، وأن التجارب تجعل من الرجل أحيـانا مرآة تنعكس عليها صور النساء فتبديهن أكثر وضوحا من الأصل · بل ان المرأة نفسها لا أظنها ـ بغير انعكاسها على رجل ـ تصبح شيئا

حيا جياشا بالأحاسيس ، مفعما بالمشاعر • وقصة المرأة •• لا تكون الا والرجل في حناياها ، وكذا قصــة الرجــل لا تنسج الا والمرأة سداها • فان كتبت عن ست نساء فانا اكتب ضمنا عن ستة رجال • وان كتبت عن ستة رجال فلا أظنني استطيع أن امنع ستة النساء من التسلل وحشر انفسهن بين السطور •

وثمة شيء اخر شجعني على الكتــابة عن النســاء •• وهو ان الدكتورة ابنة الشاطيء نفسها •• كتبت الى رسالة خاصة بعد ان قرأت « انى راحلة » تقول : انها كانت تنتقد فيما سبق كتابتى عن النساء وافراطى فى الكتابة •• ولكن بعد قراءتها لهذا الكتاب وجدت أنى أستطيع أن اكتب عنهن كما اشــاء • وان أفرط فى الكتابة كما أشاء •

وبعد •• اترك الحديث للستة الجديدة تتحدث عن نفسها •

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

« يوسف السباعى »

٦ نســـاء

امـــرأة مغــرورة

اجل يا أخت الروح ، لقد كنت نبيلة ثرية أرستقراطية في بلد المظاهر والغرور ‥ وكنت اديبــا بين الناطقين بالضاد ٠

الم أقل لك ‥ كنت في السماء ‥ وكنت في الأرض ؟

ودع الصـــبر محب ودعـــك

ذائع من سره ما اســـتودعك

أما الصبر يا توأم الروح فقد استعصى وتعذر ٠

يوم وليت ‥ ولى ‥ وساعة ودعت ودع ‥ وما عاد يغنى عن فرقتك صبر ، أو يفيد فى بعدك عزاء ٠

أما السر الذى استودعتك ‥ فبرغمى يا حبيب يذاع ٠

أنا ان كتمت فى نفسى الجوى ‥ وحبست فى صدرى اللوعة ‥ فما أستطيع كتم أنفاس تستعر ، وزفرات تلتهب ٠

اذا حبست الدمعة فى المآقى ، انطلقت الآهة من الحنايا ؛ واذا حبست الآهة ‥ انسابت الدمعة ٠

وكيف أعيش يا حبيب الروح بعدك بغير آهة ، وبغير دمعة ؟

السر الذى استودعتك ٠٠ ذائع يا حبيب برغمى ٠٠ تنم عنه الآهة ، وتفضحه الدمعة ٠٠ وبين الدمعة والآهة ، يتململ اللسان ويتلهف على أن يفضى به ويبوح ٠

وبين التململ واللهفة ٠٠ اتركه ينطلق ٠

افلا اقل من عود الى الذكرى ! هى عزاء الى حين !

★ ★ ★

لقيتك يا حلوة وبيننا ما بين السماء والأرض ٠٠ أنت فى السماء، وأنا فى الأرض ٠٠ مجازا وفعلا ٠٠ أى والله ٠٠ كل الظروف التى احاطت بنا فى أول لقاء ، جعلتك سماوية وجعلتنى أرضيا ٠

كنت تتبوئين احدى مقصورات سباق هليوبوليس ، كما يتبوأ القمر اريكة السماء ٠٠ ووجدت بينك وبين القمر شبها شديدا ٠٠ اذا أشرق احدكما لم ينافسه فى سمائه كوكب ، تنساب منه الأشعة رطبة ندية ، تغرق العباد بنور بلا حر ، ونشوة بلا خمر ٠

وكنت انا من عباد الله الذين يتقاسمون النور ويتشاركون النشوة ، قانعين ناعمين ، متجولين فى الأرض ٠٠ أرض السباق الحافلة العامرة ، غادين رائحين بين « بادوك » الخيل وبين مدرجات السباق ، حائرة عيونهم ٠٠ بين الجياد وبين الخرد الغيد ٠

وهكذا كان احدنا فى السماء ، والآخر فى الأرض ٠٠ شكلا ووضعا وفعلا ٠٠ اما مجازا فقد كان بيننا أبعد مما بين السماء والأرض ٠

كنت نبيلة ثرية ارستقراطية بكل ما فى تلك الكلمة من معان ٠٠ وكنت ٠٠ ماذا كنت ؟

ماذا أقول ؟ ٠٠ وأنا ما عرفت فى يوم من الأيام من أكون ؟ كاتب واديب ؟

لو كنا فى غير هذا البلد ، لقلتها بملء فمى ، ولانتصرت أن يحنى لى الناس هاماتهم تحية واجلالا ·· أما هنا والأديب المجرد لا يعرف كيف يأكل عيشه ·· أما هنا والبلد يعترف بالجزار والبدال واللحاد والكناس ، كأصحاب مهن ·· ولا يعترف بالأديب ·· أما هنا والأديب لا يجسر أن يكتب على بطاقته « أديب » فكيف أقول انى أديب ؟

ومع ذلك فلا مناص من الاعتراف بها ·

لأننى فعلا ·· لست سوى ذلك ·

أجل يا أخت الروح . لقد كنت نبيلة ثرية أرستقراطية فى بلد المظاهر والغرور ·· وكنت أديبا بين الناطقين بالضاد ·

ألم أقل لك ·· كنت فى السماء ·· وكنت فى الأرض ؟

وكان أحرى بى فى ذلك اليوم ، أن أنصرف عنك كما انصرفت من قبل فى كل مرة لمحتك فيها من بعد ·· وأن أنشد لنفسى ذلك القول الذى أعزى به عنك نفسى كلما لقيتك :

« لا ترفعا أنصرف عنك ولا كبرياء ، ولا جحودا عن حسنك ولا جفاء ·· بل ان جبار اليأس قد خرج بفؤادى عن دائرة نفوذك وعلا به على بسطة سلطانك ·

أيتها الغادة : كل ما فى الوجود ينوب فى الحافك الا يأسى فانه كالثلج الجامد على راس الطود تغازله أشعة الشمس طول الأبد فلا يشعر ·

وقفت منى على قيد خطوتين وبينى وبينك ما بين ابليس والرحمة ·· فكأننا نجمان تجاورا فى عين الناظر وبينهما بعد السماء عن الأرض وكأنك تنظرين الى ميت ، يفصلك عنه الوقت ، والوقت ما لا يقدر » ·

كان حريا بى أن أنصرف عنك بهذا القول ، لولا أن أتاح الله لى

من رفعتى من وهاد الأرض الى علياء السماء ·· فاذا بى أجد نفسى فى غمضة عين أجلس بجوارك ·

لقد صعدت الى السماء ·· بغير فعل خارق ·· لا موت ، ولا معجزة ·· بل كانت المسألة أبسط مما أتصور ·

رأيت فى مقصورتك زميلا قديما من أبناء الذوات ·· كان يجاورنى فى احدى سنوات الدراسة ، ورفع يده لى محييا عندما التقى بصرانا وأشار الى بالصعود ·

ولم أتردد ثانية رغم ادعائى الترفع والاباء ، واحتقار هذه الطبقة من أبناء الذوات ·· بل شققت طريقى بين الأجساد المتراصة حتى وصلت الى المقصورة ·

وتصافحنا ودعانى الى الجلوس فلبيت الدعوة وقام بدور التعارف بينى وبينك ، فأحنيت رأسك احناءة تكاد لا تحس ومنحتنى نظرة بطرف عينيك ·

ومع ذلك فما أحسست بخذلان ولا ضيق ، فقد كان جلوسى على مقربة منك كاف لكى يجعلنى أغض الطرف عن كل اهمال منك أو اعراض ·

كنت أحس بنشوة ممتعة ، نشوة أطاحت بذلك اليأس الذى كان يخيم على نفسى كلما لقيتك أو نظرت اليك ·

وانتهى شوط السباق الدائر وقتذاك والذى كان يسترعى كل التفاتك ، والذى جعلك تلقيننى بذلك الاهمال والاعراض لقطعى عليك استغراقك فى مراقبته ، ثم وجدتك تضعين المنظار بجانبك وتصفقين بيديك طربا ·· وتلتفتين الينا صائحة وقد استخفك الطرب :

ــ برافو ·· هذه أول مرة أكسب فى هذا الموسم ، لقد كان حظى سيئا من أوله ، ولكن هذا الكسب سيعوض لى كل الخسارة السابقة ،

فما من أحد قد لعب هذا الحصان ، انه « أوتسيدر » ، ويبدو لى أن الريال سيأتى بعشرة جنيهات ·

ثم نظرت الى ووجهت لى الحديث :

ــ ان وجودك سبب لى حظا سعيدا ·· يجب أن تبقى معنا الى نهاية السباق حتى أستمر فى الربح ·

وكان الأمر الطبيعى أن يسعدنى قولك هذا ، ولكنى ــ وأنا مخلوق غريب لا أفهم نفسى فى كثير من الأحيان ــ وجدتنى أصاب منه بضيق·

وقد يكون السبب الأول لهذا الضـــيق هو أنك قلت كل حديثك باللغة الانجليزية الجيدة السليمة النطق ·· أما السبب الثانى فهو احساسى بأننى أصبحت عندك مجرد تعويذة تجلب لك الحظ ·

أما عن السبب الأول فقد ضايقنى لأنه سبب لى يأسا جديدا ، فقد وجدت سلاحى الوحيد الذى كنت آمل فى أن أغزوك به ، وهو سلاح التفوق فى الكتابة والأدب ، قد قل وأصبح لا يجدى معك ·· فقـد أدركت من لهجتك فى الانجليزية ، أنك لا تستطيعين الحديث بالعربية ·· بله قراءة أدبها ·

وأنا رغم ما قلت عن ضياع قيمة الأدب فى هذا البلد ، شـديد الاعتداد بنفسى ــ على الأقل فيما بينى وبين نفسى ــ كأديب ·· شديد الغرور ، شديد الثقة ، أحترم نفسى ككاتب أكثر مما احترمها كأى شىء آخر ــ وقد يكون هذا هو ديدن كل كاتب وأديب ــ وأشعر دائما أن سلاحى الأول فى التفاخر والزهو هو كتابتى وأدبى ، رغم أنها أشياء لا تقدر كثيرا فى هذا البلد ·

وهكذا خذلت عندما وجدت أن بينك وبين أدبى حجاب كثيف من جهلك باللغة العربية ، ولم يعد لدى أى أمل فى أن تكونى قد قرأت لى ، أو سمعت بى ·

أما عن ضيقى لأنى شعرت أنك قد جعلتنى تعويذة ، فقـد كان

مرجعه أيضا الى ذلك الغرور الذى أحسه فى نفسى • فرغم يأسى منك واحساسى بالمدى الشاسع بينى وبينك •• كنت أود ــ اذا ما التقينا ــ أن تجـــدى فى ميزة فى الشكل أو فى الخلق أو فى الثقافة ، اكثر من ميزتى كتعويذة تجلب الحظ •

وبعناد الحمقى المغرورين ، وجدتنى أنهض لأنصرف •• ورغم الحاحك على بالبقاء صممت على مغادرتك مدعيا أنى على موعد •

وتركت السباق سائرا على قدمى وسط آلاف العربات المكدسة أمام الميدان •

وعندما خلوت لنفسى بعد ذلك ، عجبت لما فعلت واتهمت نفسى بالجنون •• كيف تلحين على بالجلوس معك فأرفض ؟

كيف يحدث منى هذا ، وأنا الذى لا يسعدنى فى الحياة أكثر من نظرة اليك من بعد ؟ وماذا ضايقنى منك ؟

حديثك بالانجليزية ؟ وما ذنبك ، وأى جريمة فى ذلك ؟

وماذا أغضبنى من قولك أنى جلبت لك الحظ ؟ ألم يكن هذا خيرا من أن تقولى أنى جلبت لك سوء الحظ ؟

وماذا كنت أنتظر منك ؟ اتستبقيننى لأن جمالى قد سحرك ، وانك لا تطيقين فرقتى ؟

يا لى من غر أحمق مأفون ! • لقد أضعت فرصة العمر ! •

وقضيت ليلتى حزينا يائسا ، وظللت مغرقا فى الضيق ، حتى ظهر اليوم التالى عندما تبين لى أن فرصة العمر لم تضع بل هى مقبلة مؤكدة ، فقد أنبأنى صاحب الجريدة التى أعمل بها أنه قد وصلته دعوة لاحدى حفلات الفروسية وسألنى أن أذهب مندوبا عن الجريدة•

ولم أتردد فى القبول ، فقد كنت أعلم أن مثل هــذه الحفلات لا تفوتك ، ووجدت الفرصة قد تسنح للقائك ، والحديث معــك ••

لا سيما وأنك بلا شك ما زلت تذكرينني من لقاء الأمس وتذكرين أنى أجلب لك الحظ ٠

ولقيتك هناك وأسعدنى الحظ بالجلوس بجوارك فى حفلة الشاى التى أقيمت فى النهاية ٠٠ ودار بيننا الحديث فعرفت من أنا وماذا أعمل ، ولم تبخلى على ببعض كلمات الاعجاب بالأدب والآدباء رغم أنك لم تقرئى لى ٠

ولا أكذبك القول ٠٠ ان هذه الجلسة بيننا كانت بداية احساس جديد لك فى قلبى ، فقـــد تبينت خلال الحديث معـك أنك مخلوقة متواضعة لطيفة ذكية رقيقة ٠

وقلت لى انك قرأت رباعيات الخيام بالانجليزية ٠٠ وأنك ترغبين فى قراءتها بالعربية ٠٠ فوعدت باحضارها اليك ٠

وهكذا بدأت الصلة تتوطد بيننـا بواسطة عمر الخيام ، فقـد أحضرت لك الترجمة العربية ، ولكنك لم تفهمى منها حرفا واحدا ، فتطوعت بقراءتها وشرحها لك ٠

وبدأنا جلساتنا فى خلوات ممتعة هنيئة ، خلوات ملؤها الشاعرية والأوهام اللذيذة والحلم الجميل وأخذت أشرح لك :

غــرد الطير فنبــــه من نعس
وأدر كأســـك فالعيش خــلس
سل سيف الشمس من غمد الغلس
وانبرى فى الشرق رام أرســلا
أسهم الأنوار فى هام القلاع

وأقبل كل منا على صاحبه بلهفة ونهم ٠٠ أنا بالقراءة والشرح واستراق النظر الى وجهك الساحر الوضـاء ٠٠ وأنت بالاستماع والشرود والذهول ٠

وكنت أسير فى طريق حبك بسرعة الصــاروخ ٠٠ حتى بلغت

نهايته ·· وبدا لى أنك لا شك سائرة فى نفس الطريق وأننا سنلتقى فى النهاية ويفضى كل منا بمشاعره للآخر ·

ولكنك نكصت على عقبيك فجأة قبل أن تبلغى النهاية ·

لست أدرى لم ؟

أتراك لم تنظرى قط الى المسألة على أنها مسألة حب جاد وأنك كنت تتسلين بى وبالخيام ·· وأنت كنت تضيعين بعض الوقت فى شىء جديد عليك ، وأنك سرعان ما مللته ؟

هل كنت لديك مجرد نوع من التغيير ؟

الله وحده أعلم ·

أما الذى أعلمه ·· فهو أنك بدأت تخلفين المواعيد ·· وبدا لى أنك تتهربين من لقائى ·

وأخذت ــ بدافع الحب الجنــونى ــ ألحف فى الرجاء وألح فى محاولة اللقاء ، حتى صدمت منك صدمة ردتنى الى صوابى وأعادت الى كبريائى وذكرتنى بكرامتى ·

كان ذلك فى حفلة ساهرة طال بنا السهر فيهــا ·· حتى رأيتك لأول مرة ·· ثملة تترنحين ·· وسمعتك تصيحين بى ساخرة :

ــ لم لا تثقل علينا بأشعارك أيها الأديب ؟

ثم التفت الى الجمع الصاخب ، وأردفت بنفس اللهجة الساخرة :

ــ هذا الأحمق المسكين كان يحاول أن يوقعنى فى حبه بقراءة الشعر ·· تصوروا هذا ·· تصوروا ·· أنى أحب هــذا المغرور الساذج ·

ولست أذكر أنى ضربت امرأة فى حياتى قط ·· حتى ولا خادمة ·· ولكنى وجدت مراجلى تغلى بالغضب ·· ووجدت كل ما بى من حلم وهدوء ورقة طبع يتبدد فلا يضحى له أثر ·

ولم أشعر الا ويدى ترتفع وتهبط على وجهك الجميل النبيل بصفعة مدوية ٠

وغادرت المكان مرتجفا من الغضب تاركا الجميع مغرقين فى الصمت والدهش ، وعندما وصلت الى البيت ارتميت على الفراش منهارا ٠٠ كنت أشعر بحزن شديد ٠٠ فقد عزت على نفسى أن تهان بين طبقتك الوضيعة ٠٠ العالية اسما ، الوضيعة فعلا ٠

لقد كنت أشعر أنى المسئول عما حدث فقد كان أولى بى ألا أزج بنفسى فى وسطك الفاسد المغرور ٠٠ وأن أربأ بها عن الهوان بين هؤلاء الرقعاء المخنثين ٠

يا للحمق والغباء !

كيف صور لى الوهم ٠٠ أنك شاعرة مرهفة الحس ٠٠ وكيف أضعت وقتى فى قراءة ما قرأت وشرح ما شرحت ؟ ومرت الأيام بعد ذلك وأنا أحاول تضميـــد جراحى ٠٠ جراح القلب المطعـون ٠٠ والكبرياء المهيضة ٠

وحاشاى أن أزعم أنى ضمدت جراحى ببساطة ٠٠ وأننى لفظتك بسهولة ٠٠ أو لفظ النواة ٠

لقد كانت عملية نسيانك واحتمال هجرك شاقة مضنية ٠٠ ولكنى تحملتها بجلد ٠٠ حتى كدت أنساك ٠

ولكنك عدت تنكئين الجرح ٠٠ وترسلين لى مع بعض الأصدقاء من يخبرنى أنك تودين رؤيتى ٠

وبدا لى أنك تحاولين الثأر ٠٠ وأنك مصممة على رد الصفعة التى هويت بها على خدك النبيل فى تلك الليلة ٠٠ فلم أرد أن أعطيك الفرصة ٠٠ وصممت على ألا ألقاك قط ٠

وعادت الوساطة فى الرجاء ٠٠ فزادت بى الشكوك وأيقنت أنك لا بد معدة العدة لرد الصفعة ، فزدت الحاحا فى القطيعة ٠

لقد كنت أعتبر كل ما بيننا قد وصل الى نهايته وأنه لا فائدة في أن آمل في مثلك خيرا بعد ما كشفت عن نفسيتك ٠

وبلغني بعد ذلك أنك مريضة وأنك تطلبين أن أحضر لك رباعيات الخيام لأقرؤها لك ٠

وضحكت ساخرا ٠٠ ورددت على من أبلغني بذلك الرد الشهير الساخر « تاني ؟!! » ٠

لقد كنت مصمما على أن أقلب حبي لك كرها ٠٠ وكنت أحس أني أفلحت في ذلك ٠

حتى وصلتني منك رسالة ٠٠ قلبت مشاعري رأسا على عقب ٠٠ فتحت الرسالة فاذا بها مكتوبة بالانجليزية واذا بها ما يلي :

« ٠٠٠٠

أعذرني اذا ما كتبت اليك بالانجليزية ٠٠ فاني أريد أن أكتب لك أشياء دقيقة ٠٠ لا أظنني أستطيع أن أعبر عنها باللغة العربية ٠٠ وليس الذنب ذنبي اذا لم أستطع ذلك ٠٠ بل ذنب أولئك الذين علموني ٠٠ وجعلوني بطريقة تعليمهم أشبه بأجنبية غريبة في بلدي ٠٠٠

أجل ٠٠ ان الذنب ليس بذنبي ٠٠ وليس أدل على ذلك من أن تعرف أنه عندما ترك لي الأمر ٠٠ أني أقبلت على قراءة العربية ٠٠٠ وأنني رغم ضآلة معلوماتي فيها ٠٠ قد قرأت جميع مؤلفاتك بها ٠٠ وليس أسهل على من أن أثبت لك ذلك ٠٠٠ فأسرد لك رأيي فيها وملاحظاتي عليها ٠٠

ولكن لا أظن هذا وقته ٠٠ بل يكفي أن تصدقني وتثق في قولي ٠٠ والا ذهب كل كلامي سدى ٠٠ وضاعت محاولتي أدراج الرياح ٠

اني أريد منك الثقة بي وتصديق كل ما أقول ٠

ولن يزيد ما أقول عن بضع كلمات :

اني أحبك ٠٠ وأريد أن أراك ٠

راقدة كما أنا مسجاة على فراش المرض ·· وبجوارى كوم مكدس من كتبك التى التهمتها واحدا ·· واحـــدا ·· وأنا التى كنت أكاد لا أقرأ الصحف والمجلات ·

راقدة ·· متعبة ·· منهكة الأعصاب ·· خائرة القوى ·· قد ألح على المرض ·· لا يكاد ذهنى يذكر ســواك ·· ولا تكاد عينى ـ مفتوحة أو مغمضة ـ تبصر غيرك ·

لست أدرى ·· كيف حدث لى هذا ؟

أهى كتبك ·· وطريقة تفكيرك ·· وفيض مشاعرك ؟

أهو المرض الملح الذى تركنى أشبه بالصرعى ؟

أهى الذكريات الحلوة الهادئة الشاعرية ؟ ·

أم تراها الصفعة التى أدميت بها خدى وأعدتنى بها الى صوابى ؟

لست أعتب عليك ·· فقد تقادمت مرحلة العتاب ·· وبات كل ما أحسه لك ·· لهفة عليك ·· وحنينا اليك ·

لقد صنعت منى مخلوقة جديدة ·· أو أعدتنى الى معدنى الطيب وأزلت من نفسى شوائب الوسط الخبيث الذى أحيا فيه ·

نفسك الطيبة ، وخلقك القــويم ، وكتابتك العجيبة ، وصفعتك وهجرك ·· كل ذلك صهرنى وطهرنى ·

انى أحبك ·· وأريدك ·· لنبدأ معا عهدا جديدا ·

ولا أظنك تخذلنى ·· وأنت الرفيق الكريم ·· بعد كل ما قلت لك ·

أرجوك ·· تعال ·· » ·

★ ★ ★

ولم أخذلك ·· فقد صفحت عنك وسعيت اليك بعد أن أذابتنى رسالتك ، ولكنك أنت التى خذلتينى فرحلت ، قبل أن أصل ·

لقد أودت بك العلة ، فلم تمهلك حتى أراك ·

لقد تعجلت الرحيل يا منية النفس ·· فلم تنتظرى حتى تسمعى

استغفارى وتبصرين ندمى على عنادى وعلى هجرك ·· لقد دعوتنى للمجىء ·· فماذا كان عليك لو انتظرت وصولى ؟

فيم التعجل ·· يا حلوة الروح ·· وأنت الداعية اللهفى المتشوقة ؟

والى أين يحملونك هؤلاء القساة الغلاظ الأكباد ؟ ·

أهكذا بت لا أملك لك الا خطوات قصاراً ·· أسيرها وراءك وسط هذا الحشد من الباكين ؟ ·

أهكذا لا يملك عابدك الا جلسة صامتة أمام قبرك ·· يكتم لوعته ويحبس دمعه ·· ثم يعود فى بهمة الليل كالأشباح السارية مستغفرا نادما ·· يحرقه الشوق ·· ويلهبه الأسى ··

يقرع السن على أن لم يكن   زاد فى تلك الخطا اذ شيعك

امـــــرأة مخـدوعة

أهكذا تتطاير المبادىء والاخلاص ، فى غمضة عين ، أمام جسد عار وجيفة نتنة ؟

أهكذا الرجال كلهم كالكلاب مهما حسن نوعهم وكرم أصلهم ·· لا يتورعون عن أن يدسوا أنوفهم فى أقرب كوم للقمامة يلوح لهم ؟

سيدى العزيز :

من مجيرى من يأس قاتل وخذلان مميت ؟

انى أكتب اليك ، وبجسدى رجفة وبقلبى حرقة ·· ولا أدرى وأنا أكتب ، لم أكتب ، ولا ماذا سأكتب ·· ولكن يبدو لى أن الكتابة قد تسكت الرجفة وتطفىء الحرقة ، ولو الى حين ·

دعنى أسـألك ·· سـؤالا يدور فى رأسى ، ويلح على نفسى · سؤالا ·· يخيل الى أن على الاجابة عنه يتوقف تقرير مصيرى وتغيير حاضرى ، واختيارى للسبيل الذى سأسلكه فى مستقبل حياتى ·

أجبنى بصراحة · أجبنى كرجل ·· مجرد رجـل ·· دع عنك فلسفة الكتابة ، ودع التعقيد والالتواء ·· قل لا ، أو نعم ·

هؤلاء الرجال ٠٠ هل كلهم من نفس المعدن الخبيث ، والطينة القذرة ٠٠ ؟

لا تثر ولا تغضب فتندفع لتدافع عن جنسك ٠٠ الجنس الوضيع الحقير ٠٠ الوالغ فى كل اناء ، الناهش من كل جيفة ، الشارب من كل مستنقع قذر ، الطماع الخداع ، الخائن الأشر ٠

لا تندفع فتقول لا ٠٠ ولا تصيبك الحمية فترد على سبابى بأقذع منه ٠٠ فما قصدت به سبابا ٠٠ بل هو مجرد وصف ٠٠ لم أجد خيرا منه ٠٠ لأصور نظرتى الى جنسكم ٠ الجنس الساقل !

قبل أن تجيب استمع الى قصتى ، وافهم لم أسأل سؤالى هذا ٠٠؟ وتأكد أننى لا أتمنىّ فى حياتى شيئا أكثر من أن تجيب بلا ٠٠ وأن تقول لى ٠٠ انه ما زال على الأرض من بين هؤلاء الرجال من هو أطيب معـدنا وأنقى طينة وان هـذا هو كل ما بقى لى من أمل فى الحياة ، ورجاء فى المستقبل ٠

تبدأ قصتى بداية عادية جدا كما تبدأ قصة كل زوجة ٠٠ رزقها الله ـ كما يقولون ـ بالعدل ٠٠ ووفقها الى زوج طيب ٠

ولست أريد أن أضيع الوقت فى سرد تفاصيل لا أشك فى أنها ستنطبق على المئـات ، بل الألوف ، من الزوجات غيرى ٠٠ والتى لا أظنها تعطينى طابعا مميزا ، ولكن يبدو لى أن من الخير أن أعطيك كروكيا سريعا يعينك على تقدير موقفى وفهم مشاعرى ٠

أنا ابنة أحد موظفى الحكومة ٠٠ موظف يعتبر الى حد ما كبيرا ٠٠ وان كان دخله اذا ما قورن بعـدد أفراد أسرته الغنية بالأبناء لا يكاد يجعل منها أكثر من أسرة متوسطة تقطن فى شقة بالايجار ، وتصرف الدخل عن آخره بين الملابس ومصاريف المدارس ، واللحمة ، والخضار ٠

وكان سوقنا ـ أنا وأختى ـ فى الزواج رائجا ٠٠ فقد كنا نتمتع

بكل مواهب الزواج من سمعة حسنة ، ومظهر جميل ، وعائلة طيبة ، وأب ذى مركز محترم •

وهكذا تسربنا ، مع العرسان ، الواحدة تلو الأخرى ، وخرجت بدورى مع رفيق العمر تاركة دار أبى الى حيث أضحيت أنا نفسى ربة دار •

ولا أكتمك القول •• انى لم أر فى زوجى فى بادىء الأمر مايسمونه فتى الأحلام ، ولم يصادف منظره هوى فى نفسى ، ولكنه مع ذلك كان – على بعضه – مقبولا •• وكانت مجموعة مزاياه لا تدع مجالا لفتاة مثلى فى التردد فى قبوله •

كان شابا ذا شهادة عليا وذا عمل حكومى يتناسب مع شهادته •• متوسط القامة ، نحيل الجسم ، أسمر البشرة ، ليس به ما يلفت وليس به ما ينفر •• بادى الهدوء والسكينة ، أميل الى الصمت والاطراق والحياء •• وعندما سأل أبى عنه أنبىء بأنه نموذج لحسن السير والسلوك •

هكذا كان زوجى عندما قررنا قبوله •• وعندما خرجنا من الدار معا لنبدأ حياتنا المشتركة •• ولم أكن وقتذاك أحس بفرحة مطلقة •• بل كانت فرحتى قلقة متشككة مما يخبئه لى الغد المجهول ، وكان يتملكنى شعور المطبقة بيدها على « بخت » توشك أن تفتحه لترى ما به •• لا فرق بينى وبينها سوى أنى كنت أنتظر الأيام لتفتح لى بختى •• وترينى أى مخلوق قد ساقه القدر الى لأشد نفسى معه •• وأقرن حظى بحظه ، ومستقبلى بمستقبله مدى الحياة •

وبدأنا الحياة معا ، فى شقة فى احدى عمارات مصر الجديدة القائمة على أطرافها والتى لا تزيد شققها على ست أو سبع •• وأخذنا ننسق الأثاث فى الغرف ونرص الأصص فى الشرفات حتى

بدت الشقة المتواضعة ذات الثلاث غرف وكأنها قصر منيف ، وأحسست فيها بحلاوة الاستقرار والهدوء ٠

ومرت بى الأيام تحمل لى مزيدا من هدوء ومزيدا من استقرار ، وتكشف لى البخت المخبأ ٠٠ يملؤنى رضا وهناء ٠٠ وبت أشعر أنى امرأة موفقة سعيدة الحظ ٠٠ فقد وجدت فى زوجى انسانا لا تطمع المرأة فى خير منه ٠

لقد غير الزواج نظرتى فى الزوج ٠٠ فقد كنت ـ وأنا فتاة ـ أرى الزوج المثالى فى رجل طويل القامة ، عريض الصدر ، حلو التقاطيع ، جذاب الملامح ٠٠ كنت أراه خليطا محببا من نجوم السينما ٠٠ يملك عربة فخمة يجلسنى فيها بجواره ٠ ويحملنى بها كل يوم لنجوب الطرقات حتى يستقر بنا المقام فى بقعة خلوية نتناجى فيها ونتبادل أحاديث الهوى ٠٠ ثم يعود بى فى النهاية الى فيللتنا الأنيقة المليئة بالخدم والحشم ٠

تلك كانت أوهامى ، وأنا فتاة أحيا على عذب الأوهام ، فلما تزوجت علمتنى التجربة أن أوهامى كانت عبث صبية وأرتنى أن الزوج المثالى شىء آخر لا صلة له بما كنت أتخيل ، وانه لا ضرورة هناك لأن يكون عريض الصدر ممدود القامة ، ولا ضرورة أن يكون صاحب عربة أو صاحب فيللا ، بل أهم من ذلك كله ٠٠ أن يكون شريكا جيدا ٠

ان الزوج المثالى هو الشريك الذى يقوم بنصيبه فى الشركة الزوجية خير قيام ٠٠ ولا أظن أن هناك شركة يمكن أن تفلح أو يقوم لها بناء على غير الحب والوفاء والثقة المتبادلة ، وحسن التفاهم ٠

ان الزوجة بعد الزواج لا تتأمل كثيرا تقاطيع زوجها ، ولا تقضى الساعات فى قياس طوله أو عرضه ٠٠ ولكنه يسعدها جدا أن يدخل عليها الزوج ببسمة حلوة ووجه بشوش ، وأن يشعرها انه لم ينس

التوافه التى طلبتها منه ، وأن ينظر اليها بعين الرضا ·· كأن الأرض لم تنبت خيرا منها ·· !

يسعد الزوجة أن يكون هناك توافق فى المشارب بينها وبينه ·· وأن يكون هناك تماثل فى الطباع ، وأن يحب ما تحب ويكره ما تكره·

ان الزوج المثالى هو الذى يجعل من زوجته وبيتـه بغيته فى الحياة ·· والذى يشعر مخلصـا أنهما خير ما يسبب له السعادة والهناء ·· فهو يقصدهما قريرا راضيا ·

الزوج المثالى هو الذى لا يفور ولا يثور لتوافه الأمور ، والذى يتغاضى عن هنات الدار ويلتمس الأعذار ·

هكذا أضحى الزوج المثالى فى نظرى ·· بعد أن تزوجت ·

وهكذا أيضا كان زوجى ·

أفلا يحق لى أن أحمد الله وأن أعتبر نفسى امرأة سعيدة الحظ ·· ؟

ومن طبيعة الانسان فى هذه الحياة ·· أن يتعود منهـا الشيء الطيب حتى يضحى لديه غير ذى قيمة ·· وأن يتعود النعمة فلا يعود يحس بها نعمة ·· بل يراها أمرا طبيعيا ·· ولا يعود يشعر منها بلذة النعمة ·· ولا يفكر قط فى أن يحمد الله عليها ، بعد أن اعتادها حتى نسيها ·

ولكنى لم أكن كذلك ·· لا لميزة فى عن بقية البشر ·· بل لأنى كنت أجد دائما ما يذكرنى بما أنا فيه من نعمة ·· فلم أعتدها ولم أنسها قط ·

ان المقارنة هى الأصل فى احساسنا بالمتعة أو الشقاء ، فنحن اذا أحسسنا بالشبع ثم رأينا كل من حولنا شبعان لم نحس كثـير متعة ·· واذا أمسكنا رغيفا ووجدنا مثله فى يد كل انسان ·· لم

نشعر بميزة الرغيف ، ولكننا اذا ملكنا الرغيف ورأينا الناس حولنا يتضورون جوعا ويتلهفون على الكسرة ··· أحسسنا بنعمة الرغيف ·· وعرفنا قيمته ·

ان ثوب البفتة الذى نرتديه قد نحس به نعمة ·· وقد نحس به نقمة ·· وقد لا نحس به ·· انا نراه نعمــة لو خفضنا البصر الى غيرنا من الحفاة العراة ، ونقمة لو رفعنا البصر الى لابسى الخز والديباج ·· ولا نحس به أبدا لو نظرنا الى سوانا من لابسى البفتة والدمور ·

ولقد كنت دائما أحس ·· أنى كاسية وسط عراة ·· وريانة بين ظمأى ·· كنت أحس أننى وحدى صاحبة الرغيف ·· وغيرى يتضور جوعا ·· أو يتعلل بالفتات ·

كانت الظروف المحيطة بى تبعثنى على أن أحسد نفسى فقد كانت احدى أختى تقضى معظم حياتها غضبى فى منزل أبيها ، فقــد كان زوجها انسانا نفورا عصبيا سخيفا نكديا ، أما الثانية فقد استقر بها المقام فى بيت أبى فعلا ·· بعد أن أبت العودة الى زوجها ، لفرط ادمانه على الخمر والميسر ، ولأنه لا يعود الى داره الا قبيل الفجر ·

ولم يكن هذا وحده هو مستوى المقارنة الذى أقيس اليه حياتى الزوجية الهادئة الناعمة القريرة ·· بل كان هناك مستوى أقل منه انخفاضا وأكثر سوءا ·· وهو مستوى الجيرة التى أعيش فيها ، أو على وجه أدق قاطنى العمارة التى أسكنها ·

كانت الأسرة الأولى من الأربع أسر التى تقطن العمارة : تقطن الشقة الأولى من الطابق الأول ، وكانت تتكون من قاض وامرأته ·· وأشك كثيرا فى أنهما كانا متمتعين بأى نوع من السعادة الزوجية والهدوء المنزلى ·

وكانت الأسرة الثانية تقطن فى الشقة المواجهة ·· وربها مدير مستخدمى احدى الوزارات ·· وهو متهم دائما من زوجته ـ أن صدقا وان كذبا ـ بأنه يوشك أن يتزوج امرأة أخرى ·

أما الأسرتان الباقيتان ، فاحداهما تقطن أمامنا فى الطابق الثانى والأخرى تقطن فوقنا فى الطابق الثالث ·

كانت احداهما ، وهى التى تقطن أمامنا ، مكونة من محام شاب يمت الى زوجى بصلة قرابة ·· وزوجة لعوب براقة فاتنة ·· تميل بسليقتها الى الخلاعة والتبهرج ·

ولم يكن هناك رجل من أهل العمارة لا يبادلها البسمات والتحيات سوى زوجى ·· فقد كان يشمئز من مرآها ·· وكان يود لو استطاع أن ينصح قريبه حتى يردعها أو يطلقها ، فقد كان يراها وصمة فى جبين العائلة وجرثومة فتاكة ·

ولكنى كنت أصده عن رغبته وأرجوه ألا يتدخل فيما لا يعنيه ·

كنت أقول له هذا ·· عن اعتقاد جازم ·· فقد كنت أحسن النية بالمرأة ·· حتى بدأت أحس ذات يوم بأنها جادة فى عبثها ·· وأن هناك علاقة بينها وبين رب الأسرة التى تقطن أعلانا وهو طبيب ضابط·

وفى ذات يوم أقبل زوجى على البيت وقد تجهم وجهه وبدا كأن فى صدره ثورة تعتمل وغضبا يستعر ·· وسألته عما به فأجاب بلا شيء ·· ولكنى رأيت انه يجاهد فى كبت غضبه ·· فألححت عليه·

وأخيرا وضح لى الأمر قائلا انه قد تأكد بنفسه أن زوجة قريبه امرأة سوء ·· وأنه لا يستطيع الصبر على عبثها ولا يطيق أن يدعها تجعل من الدار ماخورا وتلوث شرف زوجها الغبى الحمار ·

ولم يكن ميعاد حضور زوجها قد حل ، فقد كانت الساعة السابعة مساء ولم يكن يحضر قبل العاشرة ·· ووجد زوجى أن خير فرصة

ينتهزها لتوجيه نصيحته للمرأة العابثة هى هذه الساعة ٠٠ فذهب يطرق باب الشقة ٠

وكان أقصى ما أخشاه أن يتهور زوجى فى غضبه ٠٠ فانه رغم هدوئه وحلمه وسعة صدره ٠٠ كان اذا غضب نسى نفسه ، وخرج عن وعيه ٠

وبدأت أندم على تركه يزج بنفسه فيما لا يمكن أن يعود عليه الا بالشر ٠٠ ما لنا ولغيرنا !

ثم هناك أمر آخر ٠٠ أليس من المحتمل أن يعود زوجها فجأة ٠٠ فيندفع زوجى فى غضبه ويقص عليه جلية الأمر ٠

ومن يدرى ربما ثار زوجها فقتلها وقتله وقتل نفسه ٠

وأخذت الوساوس تصطخب فى رأسى ٠

وتملكنى على زوجى قلق شديد ٠٠ وخيل الى أن غيبته قد طالت ، ووجدتنى مكروبة لاهثة لأطمئن عليه ٠

وطرقت الباب طرقة خفيفة فلم يجب أحد ٠٠ ووجدت أن الباب غير مغلق بالمزلاج ، فدفعته دفعة خفيفة فانفتح ، ودخلت الى الصالة وأنا فى غمرة من القلق والاضطراب ٠

ووقفت فى منتصف الصالة الخالية ٠٠ أدير البصر يمينا ويسارا دون أن أجد أحدا ٠٠ وزادت فى نفسى الوساوس ، ووجدتنى أندفع بلا ارادة الى أقرب حجرة الى فافتح بابها وأدلف منه ٠

ولا أظننى أستطيع قط أن أصف لك مبلغ دهشى وارتياعى وأنا أقف فى الحجرة أحملق فى المنظر الذى رأيت فيها

لقد رأيت آخر ما يمكن أن يخطر على بالى ٠

رأيت الاثنين وقد ضمهما فراش واحد ٠

من يصدق هذا ٠٠ ؟

زوجى الأمين الطيب الوفى ، الذى كان يشمئز من المرأة ، والذى

كنت أخشى عليه من أن يقتلها من فرط كرهه لها ·· ينهار أمامها بمثل هذه السرعة ؟

أهكذا تتطاير المبادىء والاخلاص ·· فى غمضة عين ·· أمام جسد عارٍ وجيفة نتنة ·· ؟

أهكذا الرجال يا سيدى كلهم كالكلاب ·· مهما حسن نوعهم وكرم أصلهم ·· لا يتورعون عن أن يدسوا أنوفهم فى أقرب كوم للقمامة يلوح لهم ·

انى أكتب اليك من بيت أبى ، فانى لم أستطع أن أبقى لحظة واحدة مع الرجل الخائن الغادر ·

انى أحس بأن أملى فى الحيـــاة قد ذرته الرياح ، وأشعر أن كرامتى قد خدشت ، بل سحقت ·

وانى مصممة على طلب الطلاق ·· مصممة على ألا أعود اليه قط ·

ولكن يطوف بذهنى بين آونة وأخرى ذلك السـؤال الذى سألتك اياه فى بادىء الأمر :

أكل الرجال كذلك ؟ من نفس المعدن الخبيث والطينة القذرة ·· ؟

أجب بصراحة ·

أهناك أمل ــ فيما لو انفصلت عن زوجى ــ أن أصادف بين الرجال من هو أطيب عنصرا ؟ أهناك رجاء فى مستقبل أفضل ·· أم أنكم كلكم كذلك ·

أجبنى يا سيدى ·· أكلكم كذلك ؟

المخلصة

(····)

★ ★ ★

سيدتى العزيزة ...

أجل . كلنا كذلك .

كلنا تماما كما وصفت .. نفس المعدن الخبيث والطينة القذرة .
ماذا أقول لك .. وقد رأيت أن زوجك المثالى ، الذى قلت عنه كل ما قلت .. قد تهاوى عند أول تجربة ألقى به فيها ؟

أنا لا أعرف بالضبط ماذا فعلت به المرأة .. ولا ما نوعها .
وان كنت أستطيع أن أخمن ، وأستطيع بناء على التخمين أن أجزم بأنى أنا أو غيرى ، ما كنا نستطيع المقاومة .. لو كنا مكان زوجك ، وان كان ذلك لا يمنع من أن نكون أشد من زوجك حذرا .. فلا نترك الباب مثلا غير مغلق بالمزلاج .

يجب أن تعلمى أن أمثال هذه المرأة التى أوقعت زوجك كما أوقعت غيره .. هى أشبه بالسبيل الذى يشرب منه كل عابر سبيل .. أو بالطوبة الملقاة على قارعة الطريق يقرعها كل سائر بقدمه .. فلا يكاد يتجاوزها حتى ينساها ، اللهمّ الا اذا كان غاوى طوب .

عودى الى زوجك يا سيدتى . ان كل ما يجب عليك عمله هو أن تتركى الدار الموبوءة وتبتعدى بزوجك عن منطقة الخطر .

المخلص

(....)

سيدى العزيز ..

لا أمل هناك فى عودة ، ولا رجاء فى صلح .. لقد اتضح لى أن هذا الزوج المثالى .. كان أول الناس صلة بالفاجرة .. وأن غضبه لم يكن غيرة على الفضيلة والشرف ، بل غيرة على المرأة من بقية الرفقاء .

يا للرجال الخادعين الخونة ..

المخلصة

(.....)

امـــرأة طيـــبة

لقيتها فى بيت من بيوت الهــوى ٠٠ دفعنى اليـه صــاحب للترفيه والتســلية ٠٠ ووجدتهــا صامتة لا تتحدث ٠ ولكنى أحسست انها مخلوقة طيبة ٠

كنت فى حيرة من أمرهما ٠٠ وكنت أسائل نفسي وأسائل الناس ٠٠ كيف يستطيعان التفــاهم ؟ وأية سخرية من سخريات القدر ألقت بأحدهما فى طريق الآخر ، وأرغمتهما على رفقــة العمر ، وشركة الحياة ؟ !

وأعجب ما فى الأمر ٠٠ ذلك الحب العنيف بينهما ٠٠ فلقد كنت أفهم أن زواجهما ـ برغم ما فيه من تناقض يبعث على الدهشة ـ قد يكون وليد منفعة أو جاء خبطة عشواء من صنع الظروف الخرقاء أو فرضته أسباب خفية قاهرة ، فلم يستطيعا سوى الاذعان والامتثال ٠٠ أجل ٠٠ كنت أفهم أن زواجهما العجيب ٠٠ ليس سوى وضع شــاذ لغرض من الأغراض ، والحياة مليئة بالأوضاع الشــاذة المقلوبة ٠ كل هذا كان يمكن أن يبرر زواجهما ، أما أن يكون بينهما حب ، وحب عميق قوى متين ، فذلك ما لم أجد له فى ذهنى ما يبرره ٠

وكيف يقوم حب ·· بين أعمى وبكماء ·· حب استطاع أن يدفع كلا منهما رغم ما به الى المغامرة بزواج صاحبه ؟

لو أنهما تزوجا وهما صحيحان ، ثم أصيب كل منهما بما أصيب به ·· لما كان هناك ما يبعث على الدهشة ·· بل لما وجدت فى حبهما القوى سوى صلة طبيعية زادتها المصائب والنوازل توثقا وارتباطا ·

ولكنهما تحابا وأقدما على الزواج وبكل منهما ما به · كيف أحب كل منهما الآخر ؟ كيف استطاعا التفاهم ؟ ·· وكيف تبادلا العواطف والمشاعر ؟

لو كان كلاهما أبكم ·· لقلنا أنهما تفاهما بالعيون ، ولو تعطلت ــ برغمهما ــ لغة الكلام ، لخاطبت « عينيه فى لغة الهوى عيناها » ·

ولو كان كلاهما أعمى ، لقلنا جرى بينهما الحديث فعشق كلاهما الآخر بسمعه وأذنه ، « والأذن تعشق قبل العين أحيانا » ·

أما أن يجمعا بين العمى والبكم ويتحابا ·· فذلك ما حيرنى ، وملأنى عجبا ! ·

ولقد بقيت أسائل نفسى كيف يعيشان ؟ وكيف يتفاهمان ؟ حتى جمعتنى بهما أواصر صداقة ، وزادت بيننا الصلة حتى استطعت أن أعرف الكثير عن حياتهما الخاصة ·· فعلمت كيف يتفاهمان ·

شىء عجيب ! لقد كانا يتفاهمان كأصح صحيحين ، وكأن العاهة التى بكل منهما لا أثر لها ·

فهل كان التفاهم صنيع الحب ؟ أم طول العشرة والتعود ؟ !

كنت أظن قبل أن أعرفهما أن الأبكم ، دائما لا يسمع ، أما هى فقد كانت تبدو لى كأنها تسمع ·· أو أنها كانت تلتقط الحديث وتفهمه من مجرد حركة الشفاه ·· فكان هو يتحدث ، وهى تفهم كل ما يقول ، وتلبى كل ما يطلب ، بلا لبس ولا خطأ ·

وكان هو شخصا عجيبا ·· يبدو لى أن حاسة السمع أو اللمس

كانت لديه خارقة للعادة ، ومن يدرى ربما كانت لديه حاسة سادسة ٠٠ يفهم منها ما تريد ويقرأ بها خبايا رأسها وصدرها دون أن تفصح عنــه ٠

على أية حال ٠٠ سواء أكان هذا أم ذاك ، أو كان شيئا آخر مما لست أدرى ٠ لقد كان الشيء الذى أستطيع أن أجزم به ٠٠ هو أنى ما رأيت التفاهم بينهمــا يتعثر قط ٠٠ بل كانا يتفاهمان كانسانين سليمين ٠

ولقد هدأت حيرتى بعض الشيء بطول معرفتى لهما ٠٠ ولكن حب الاستطلاع لم يخمــد فى نفسى ٠٠ بل بقيت أتلهف الى معرفة قصتهما ٠٠ كيف التقيا ؟ وكيف تحابا ؟ ان فى حبهما ــ بلا أدنى شك ــ أمرا يستحق أن يعرف !

وسنحت الفرصة ذات ليلة ، وقد خلوت به فى شرفة الدار ٠٠ نسمر بحديث هادىء ، وبدأت أحدثه عن نفسى حديثا رقيقا مستفيضا استطعت به ، وبسكون الليل ونسيمه ورقته ٠٠ أن أستدرجه الى الحديث هو الآخر ، واذا به يمد ساقيه فى استرخاء ويدفع رأسه الى الوراء كأنه ينظر الى السماء ويقول :

ــ أحببت مرتين ٠٠ حبا قديما وحبا جديدا ، أما القديم فقــد ثوى ، ولم تبق منه سوى ذكريات باهتة ٠٠ تبدو كأنها بقايا سحب فى الأفق البعيد ٠٠ لقد فقدت صاحبته ، أو لكيلا نظلمها فقدت أنا منها ، وافترقنا على عهد وميثاق ، وذهبت الى الميدان بعد أن وعد كل منا الآخر أن يكون لصاحبه ، ولكن الظروف أضــاعت العهد ومزقت الميثاق ، فلم نلتق بعد ذلك أبدا ٠

لم أحاول أن ألقاها ٠٠ فقد كنت أعلم أنى بالنسبة لها لن أكون سوى انسان مفقود ميت ٠٠ هالك ، وكنت أفضل أن أكون كذلك ٠٠ من أن أبدو لها بهذا الشكل البشع ٠٠ ضريرا مشوها !

كنت أرى أن أبقى فى ذاكرتها ذكرى جميلة بدلا من أن أكون فى حاضرها واقعا مرا ثقيلا ٠٠ كنت غير واثق من نفسى ، وكنت أكره أن أكون فرضا بغيضا عليها ٠

ثم انه لا حق لى عليها ــ وهى ناضرة كالزهرة ، وهبتنى شذاها وأنا انسان سليم ــ فى أن أتعلق بها فأشدها لتقضى بقية عمرها مع ضرير خابى العينين مظلم الحياة ٠

كان حبى لها قبل أن أصاب يشدنى اليها ٠٠ فلما أصبت أحسست أن حبى يدفعنى عنها ٠

وهكذا عدت من ميدان القتال وكأنى لم أعد ٠٠ لقد سبق أن أعلنوا أنى مفقود ، ولا أظن أحدا قد اهتم لفقدى اللهم الا هى ، فقد نشأت يتيم الأبوين ، وقضيت حياتى وحيدا ، منطويا على نفسى ٠٠ لا أحب ولا أحب ، حتى لقيتها ، فأحسست نحوها بما يحسه ضال فى بيداء مقفرة أقبل على واحة منحته الظل والثمر والماء ، فوقته من هجير ، وأطعمته من جوع ، وسقته من ظمأ ٠

عدت من القتال ضريرا ، أو على الأصح ميتا مفقودا لأنطوى على نفسى مرة أخرى وأعود لأضرب فى بيداء الحياة وأفقد الظل والماء والثمر ، وأفقد معهما البصر والأمل ٠

ومرت بى الأيام لتزيدنى يأسا على يأس ، ومللت الحياة وهممت ــ لولا بقية ايمان ــ بالتخلص منها ٠٠ حتى كان ذات يوم ، أحسست أنى بعثت من العدم ٠

أجل مرة أخرى ٠٠ أحسست أنى وهبت الملجأ بعد طول ضلال ، ولقيت المقر بعد طول سعى وكد ٠

لقد أحببت ثانية ؟ !!

لست أدرى لم أحببتها ، ألتوافق بين نفسينا ٠٠ أم لأنها كانت

ذات عاهة وكنت ذا عاهة ، فالف المصاب بين قلبينا ؟ أم لأنها كانت أول من منحنى عطفا وحدبا ؟

الواقع أننى كنت على استعداد لأن أحب أية مخلوقة تمنحنى قلبها ·· أيستطيع طاوى الصحراء الجرداء ·· أن يرفض قدرا من الماء مهما حقر ، وقدرا من الظل مهما ضؤل ؟

لقيتها فى ظروف عجيبة ·· لو لقيت بها غيرها لما فكرت قط فى أن أتزوجها ·· أما هى ، فما كنت لأتردد فى زواجها حتى ولو لقيتها فى أسوأ مما لقيتها فيه ·

لقيتها فى بيت من بيوت الهوى ·· دفعنى اليه صاحب للترفيه والتسلية ، ووجدتها صامتة لا تتحدث ، ولكنى أحسست أنها مخلوقة رقيقة جميلة طيبة ، وسألت عنها صاحبة البيت فأنبأتنى أنها فتاة بكماء ·

ونشأ بيننا ود سريع ، وأحسست منها عطفا كثيرا ، ووجدت المشاعر تتدفق من قلبى نحوها ، وفى نهاية السهرة أوصلتنى الى الدار ·

وفى اليوم التالى أقبلت تزورنى ، وتكررت الزيارة يوما بعد يوم ، ولم تمض بضعة أيام حتى انتهى الأمر بيننا بالزواج ·

لقد تمت المسألة فى غاية السرعة ·· فلم يمض بين أول لقاء وبين الزواج اكثر من اسبوع ·

قد يبدو الأمر تهورا منى واندفاعا ·· أن أتزوج امرأة من بنات الهوى لا أعرف عنها كثيرا ولا قليلا ، ولكنى أؤكد لك أننى لم أندم قط على فعلتى هذه ، فلقد أحسست منذ لقيتها أن شيئا خفيا يشدنى اليها ، واستطعت أن أجزم لنفسى أنها ــ على كل ما بها ــ خير من ألف امرأة شريفة ·

لست أدرى ما رأيك أنت · انى أحس أنها عوضتنى عن حياتى

الماضية • ويبدو أننى لو تزوجت صاحبتى الأولى وأنا سليم البصر ، لما كنت أسعد حالا مما أنا عليه الآن ، ففى كثير من الأحيان يبدو لى أننى لم أفقد شيئا ، وأنى ألمس صاحبتى الأولى فيها •• وأحس بها بين ذراعى ، وأنى أبصرها كما كنت أبصرها فيما مضى •• حتى ليخيل الى أنى أحب الاثنتين فى واحدة ، وأن فقدى البصر جعلنى أتوهم صاحبتى الأولى فيها •• أترى النســاء يتشابهن جميعــا •• اذا ما تحسسناهن بأيدينا ؟

★ ★ ★

وصمت الرجل ، ولم أدر بأى شىء أجيبه ، ولم أشك من حديثه فى أن كل ما به من حنين مبعثه حبه الأول ، الذى خشى عليه أن يتحطم اذا ما التقى بصاحبته ، وأنه فضـــل طول الحــرمان على مرارة الهزيمة ، وحرص على أن يحتفظ فى ذهنه بأوهامه الجميــلة •• ليعيش عليها •

قلمــا التقى بأول امرأة •• ابدت له عطفا ، بعــد أن أضــناه الحرمان ، وهبها ما اختزنه من الحنين ، وأقبل عليها ، فأحب فيهــا صاحبته ، ولم أشك فى أن الوهم قد رسمها له صورة طبق الأصل منها •

ماذا يضيره •• ما دام ضريرا ، لا يبصر شكلها الحقيقى ولا يميز الفارق بينها وبين صاحبته الأولى ؟

★ ★ ★

ونهضت من مقعدى فشددت على يده مودعا وهممت بالخروج عندما وجدت الزوجة مقبلة من الحجرة المجاورة ، وبدا لى من نظرتها

أن فى رأسها أشياء كثيرة ، وسرت واياها مجتازين الحجرة الى الصالة ، الى الردهة ، لتوصلنى الى الباب •

وفى الردهة وجدتها تتوقف ثم ترفع بصرها الى وتهمس قائلة فجاة :

ـ هل سمعت منه القصة ؟

وتملكنى الذهول ، فقد كنت على استعداد لأى شىء الا أن اسمع البكماء تتحدث •

وهمست متسائلا فى دهش شديد :

ـ أتتكلمين ؟

وهزت رأسها مشيرة « أجل » ثم أردفت قائلة :

ـ يبدو لى أن من الانصاف أن تسمع القصة من الناحية الأخرى •انى وصاحبته الأولى مخلوقة واحدة •• انى هى •• التقيت به أول مرة ، وأنا على وشك الانزلاق الى الهاوية فأحببته كما لم أحب من قبل ، وأحسست أنه قد أنقذنى من التردى ، واتفقنا ـ كما قال لك ـ على أن يكون كل منا لصاحبه •

ثم سافر الى الميدان ، وأخذت أنتظر ، ولما علمت من صحبه أنه فقد ، تملكنى اليـأس وأحسست بالانهيـار ، ووجدتنى أندفع مرة أخرى الى الهاوية •• دون أن أجد ما ينقذنى ، ومرت بى الأيام وأنا أتجر فى الهوى •• حتى كان ذات يوم التقيت به •• فكأنى رأيت ميتا بعث ، وأحسست بالحنين اليه ، ولكنى كرهت أن أحطم فى ذهنه صورتى الحلوة الشريفة ، وخشيت ـ كما خشى هو من قبل ـ أن أبدو له بهذه الصورة البشعة•• امرأة مدنسة ، ولم اتكلم ، حتى لايعرفنى، ورجوت صاحبة البيت أن تنبئه أنى بكماء ، وحاولت تجنبه والابتعاد عنه ، ولكنه أقبل على فى لهفة وشـوق كأنما قد أحس بى • ولم

استطع الا أن أبادله اللهفة على أنني مخلوقة أخرى جـديدة غير صاحبته الأولى ، ومنذ ذلك اليوم ·· لم ألبس ببنت شفة ·

وعرض على الزواج كما أنا ·· بكماء من بنات الهوى ·· ولم أتردد فى القبول ·· وعشت معـه بشخصيتى الجديدة ، فكسبت الحاضر ولم أهدم الماضى ·

انى أمامه واقع سعيد هنىء ، وفى ذهنه ذكرى جميلة ممتعة ··

امــرأة آثـمة

**ومرة أخرى تدخل القـدر ليقذف الينـا بجديد ..
ولكن قذيفته هـذه المرة كانت بردا وسلاما وكان فيهـا
الشـفاء لنفس مضـناة معـذبة ، والرجاء لقلب يائس
موجع ، والماء لروح صادية مهجرة .**

يا قيس ليلى بليلى قل لذا الوله
هل آخر الحب من مثـل أوله ؟

أتيت ربع الهوى عن غير معرفة
والله يعـلم ما القى بمـنزله

ما كان ذلك طوعا انمـا قدمى
زلت بقلبى فقـادته لمقتـله

اقسم بليلى .. ليلاى .. وليلاكم .. وليلى هذه القصة ، ان آخر الحب أشد من أوله مرارة وألذع طعما .

وما أحق الشاعر الشاكى بالرثاء وقد ذاق المر من أوله وأتى ربع الهوى ، وخاض بحر الصبابة ، خوض جاهل مكره مساق عن

غير معرفة وبلا ارادة ولا رغبة ، ولكن قدمه هوت به وزلت بقلبه ، فأودت به الى حتفه وقادته لمقتله ٠

ما كان ذلك طوعا !٠

ومتى كان الحب طوعا ؟ ومتى كان عن معرفة وتقدير ؟

ان أمامى رسالة من بغداد ٠٠ رسالة ليلى المريضة المعذبة ٠٠ قرأتها مثنى وثلاث ورباع ، وفى كل مرة أصل لآخرها واتوقف أمام لوعة صاحبتها وحيرتها وسؤالها اياى أن أصف لهـا دواء وأجد لها حلا ٠

ان الدواء مر ٠٠ فعندما تزج بنا الأقدار فى مثل هذه التجارب يتعذر علينا الخلاص الا بطريقين أحلاهما مر ٠٠ وأسهلهما شائك وعر ٠٠ الأول على حساب تحطيم قلوبنـا وتمزيق مشـاعرنا ٠٠ والثانى على حساب تحطيم التقاليد وتمزيق العرف والأوضاع ٠٠ الأول نكبح فيه جماح أنفسنا ونعلمها الصبر على الشقاء والجلد على الحرمان ٠٠ والثانى ننطلق منه على هوانا ٠٠ تلهب ظهورنا سياط الألسنة ، وتدمى أقدامنا أشواك اللوم والتأنيب ٠٠ وكلا الطريقين شاق عسير ٠٠ والنهاية ٠٠ الله بها أعلم ٠

هذه الرسالة تحتوى على تجربة شاقة عسيرة٠٠ لست أشك فى أن الأقدار لا تبخل بهـا على البشر ٠٠ بل هى تبسط بهـا يدها كل البسط فى كل زمان ومكان ٠

ولست أريد أن ألقى لوما على صاحبة الرسـالة ٠٠ أو أحملها ذنبا ، فأنا أكره أن أعطى طالبة العلاج والمشورة بدل الدواء لوما ، وأكره أن أحملها نتيجة ما انساقت اليه ٠ فهـذه المآزق والأزمات تدفعنا الأقدار اليها دفعا ٠٠ فنجد خيوطها قد أحاطت بنا وأوثقتنا فلا نملك حراكا ولا فكاكا ٠

ومع ذلك ، ومع رغبتى الشديدة فى تجنب اللوم ٠٠ فانى لا أملك

أن امنع الحيرة والدهش اللذين يتملكانى كلما توقفت أمام بعض الحوادث والمواقف فى هذه الرسالة ٠

ولا أملك أن أمنع نفسى من التساؤل عن نظام الحياة فى بيوت العراق ، وعن تقاليد العائلات العراقية المحافظة ٠

هل من الطبيعى أن يسمح لغريب بالحياة مع أهل الدار ؟ وهل من الطبيعى أن يصبح غريب ذو حق فى عائلة من زوج وزوجة وأم وأب ؟ وأن تتضخم حقوقه الى درجة ان اى اكلة تعجبه تطبخ له وأنه اذا تاخر عن الطعام لا يجسر أحد أن يتناول الطعام قبل أن يتصدر المائدة ؟

هل هذا شيء طبيعى فى عائلة عراقية محافظة ؟

أنا لا الوم ولا أسخر ٠٠ بل انى اتساءل مجرد تساؤل ، ان الرسالة قد تضمنت هذا الكلام بمنتهى البساطة كانه لا عجب فيه ٠٠ ومع ذلك فقد عجبت له ٠٠ فانى أعرف العراقيين كالمصريين ٠٠ وأن تقاليد العائلة العراقية المحافظة هى نفسها تقاليد العائلة المصرية المحافظة ٠

وهل من الطبيعى أيضا أن ٠٠ ؟

ولكن ما لى ولكل هذا التساؤل ؟ أليس من الأفضل أن أعرض الرسالة كما هى ٠٠ وليحكم عليها القراء بما يشاءون ٠٠ ؟

أظن هذا خير وأفضل ٠

اليكم الرسالة كما هى ٠٠ بلا تنميق ولا تزويق :

« أخى ٠٠

٠٠ سأحدث أخى عن سر أدمى فؤادى وجعلنى انبل وأنا بعد فى ربيع العمر وناضر الحياة ٠

أكتب اليك كتابة شابة تعسة يائسة تقطعت بها خيوط الأمل وسدت فى وجهها سبل الرجاء ٠٠ وبلغ بها اليأس مبلغا جعلها

تتوهم نجاتها فى خيط واه رقيق ! وتتلمس وسط الظلماء بارقة نائية تلمع كاللآلىء ·

أجل يا أخى ·· لقد بلغ منى اليأس مبلغا دفعنى الى أن ألجأ اليك وأنا فى بغداد وأنت فى القاهرة ، فأكتب اليك شارحة قضيتى ، عارضة مأساتى ، سائلة اياك أن تجد لى منهــا مخرجا وتسعفنى بدواء بعد أن عز المخرج واستعصى الدواء ·

أنا أسألك الدواء وأنت فى القاهرة وأنا فى بغداد ·

أسألك راجية آملة ·

لا تتهمنى بالجنون ، فأنا ما زلت عاقلة ·· ولولا هــذا الأمل والرجاء الذى حفظ لى بقية من عقل ، لأودى بى اليــأس الى هوة من الجنون ·

اننى آمل فيك ، على البعد ، لأنى لا بد أن آمل فى شىء ، وما دام الأمل قد ضاع فى كل ما حولى ، فلم لا آمل فى شىء بعيد ؟ · على الأقل حتى لا تستعصى على الحياة ·

أنا فتاة (هكذا كتبت صاحبة الرسالة ·· وأعتقد أن الصحيح ·· سيدة) ولدت فى وسط محافظ على التقاليد ، ومن عائلة متوسطة تتكون من أم وأب وأخ ·

ولست أريد أن أضيع وقتك بتفاصيل تافهة عن العائلة ، ولكنى ألخص العلاقة بيننا بأن كل فرد فى العائلة يحب الآخر ويحترمه ·

وبدأت اندماجى فى الحياة العراقية بالالتحاق باحدى المدارس الابتدائية ·· وكنت أشعر منذ حداثتى برغبة فى الدراسة وميل الى تحصيل العلم ، ومكنتنى هذه الرغبة وهذا الميل من التفوق على لداتى من الطالبات ، وكانت أقصى أمنية لى أن أتمم دراستى حتى النهاية ، ولكن القضاء الجائر لم يشأ أن أنال أمنيتى فحالت ظروف قاسية بين الدراسة وبينى وانتزعتنى من الطريق فى أول مراحله ·

ولم يزعزع ذلك الجور من القضاء والشدة من الظروف ثقتي بالحياة ، وداومت على السير فيها راضية قانعة ، حتى قذف القدر الينا بما زلزل زلزالها وأخرج أثقالها ، وغدت علينا الرياح بغمامة معتمة مظلمة خيمت عليهـا ٠٠ أو على الأصح ٠٠ على حيـاتى أنا بالذات ٠

لم تكن الغمامة والزلزال سوى رجل جمعته بأخى دواعى العمل ، ووثقت الدواعى الصلة بينه وبين العائلة ٠٠ وزادت الأيام هـذه الصلة وثوقا ، فقد كان بحكم العمل المشترك بينه وبين أخى دائم التردد علينا يكاد يقضى معظم يومه فى بيتنا ٠

وقد بدأ هبوبه علينا وأنا لم أزل بعد طفلة غريرة ٠٠ لا هم لها سوى استذكار دروسها وعمـل واجباتها الدراسية والانهماك فى تدبير شئون الدار ، وأخذ مركزه يتوطد بيننا ومقامه يستقر ، وزاد تعلق الأسرة به حتى انتهى الأمر به الى أن يقطن معنا ٠

ولا أكذبك القول اذا قلت لك ان الرجل كان يتمتع بكل احترام وتبجيل ، وكان الكل ينظرون اليه نظرة تقدير ٠٠ عداى ٠

أجل ٠٠ أنا وحدى الصـغيرة الضئيلة التافهة ٠٠ التى كنت أكرهه وأحتقره ٠٠ فما كان يقع من نفسى الا موقع أفاق أمى فرضته علينا الأقدار فرضا ، وعبثا حاولت أن أعود نفسى حتى على مجرد قبوله ، فقد كانت تعافه وتزدريه وهى الطموحة الوثابة ، وهو رجل الشارع الفظ الغليظ المحروم من كل ما وهبه الله لانسان محترم ٠٠ لا ثقافة ولا خلق ولا ذوق ٠٠ ولا شىء أبدا ٠

ومع ذلك فلم أك أستطيع الا الرضاء ٠٠ فما كنت أملك فى الدار سلطة طرده واقصائه ، ووجدتنى أصبر مضطرة على قربه والعيش معه ٠٠ حتى وقعت الطامة الكبرى ، وطلب يدى ٠

طلب يدى لكى أكونَ زوجته ولكى أنام واياه تحت سقف واحد وفى فراش واحد ٠

هذا الحيوان الجاف ، من دون خلق الله أجمعين ، يطلبنى انا بالذات من دون نساء العالم لكى أشاطره حياته ولكى أشـد معه بوثاق يربطنا معا الى الأبد ! ٠

ولم يجد من الأهل رفضا ولا صدا ، فقد كانوا كلهم فى حاجة اليه بعد أن قيدهم بأغلال هداياه وجمائله ، وبعد أن أغمضوا أعينهم عن خبث نفسه وسوء طويته فلم يكتشفوه على حقيقته رغم انقضاء هذه المدة الطويلة على سكناه معهم ٠

وفاتحونى فى الأمر فهببت ثائرة غضبى مدافعة عن كيانى وعن مستقبلى وعن حياتى الطويلة الباقية ٠٠ وتشبثت بحقى فى الحياة وفى اختيار الزوج تشبث المستميت ٠٠ وقلت انى ما زلت صغيرة وأنى أرغب فى الاستمرار فى الدراسة ٠٠ وحاولت التذرع بجميع وسائل الرفض ، ولكن رفضى لم يجد معهم نفعا ٠٠ وساقونى الى مصيرى سوق النعاج الى قصابها والمذنب الى جلاده ٠

وفى ذات يوم أسود أغبر مثقل بالكروب والخطوب ، نفذ فى حكم الزواج ٠

انتهى الأمر ، وحانت الأخرة ، وسقت الى مصيرى المحتوم ٠٠ الى بيت الزوجية الجديد ، ولم يكن أمامى مفر منه فتوسلت اليهم — ما داموا قد قضوا على هذا القضاء — أن يترفقوا بى ويستعملوا الرأفة وألا يتركونى وحدى ٠٠ بل يؤنسـوا وحشتى ويقطنوا معى وألا يفارقونى ويخلفونى وحدى معه ٠

ومرت بى الأيام وأنا أزداد تعاسة وشقاء ، وجسدى يزداد نحولا وذبولا حتى وهن منى العظم وبت شبحا لا يكاد يعرفنى أقرب الناس الى ٠٠ وهو ٠٠ هو ٠٠ يرتع فى بحبوحة من الجهل والغباء والفظاظة

والغلظة ·· لا تكاد تسمع من شفتيه سوى سيل دائم من الألفاظ النابية الجارحة ·

ورزقت من هذا الوحش بطفلة آية فى الجمال ، ولكنها شبت على غرار أبيها ·· فظاظة خلق ، وغلظة طبع ، حتى بت أكرهها أشد الكره ·· ونمت وترعرعت وهى أبعد ما تكون عن عطفى وحنانى ·

لقد كنت أشعر دائما أنها ابنته وحده ·· وأنه ليس لى فيها ناقة ولا جمل ، فبغضتها ، وهى ابنتى ، لمجرد احساسى بأنه يشاركنى فيها تلك البنوة ·

أجل ·· لقد تغلب كرهى لابنته على حبى لابنتى ·

وهكذا سارت حياتى معه على وتيرة واحدة ، فما اعتبرته يوما زوجا لى ·· وما بادلته حبا ولا ميلا ، ولا حتى احساسا بوجود ·

وفى صيف ١٩٤٧ أفلحت ، بعد الحاح شديد ، فى اقناعه بالسفر الى مصر لتمضية الصيف فى الاسكندرية ·· ولأتداوى من علة لازمتنى هى « مرض الأعصاب » فقد كانت أعصابى متوترة مرهقة وكنت أثور لأتفه سبب ·

ومرة أخرى تدخل القدر ليقذف الينا بجديد ·· ولكن قذيفته هذه المرة كانت بردا وسلاما ، وكان فيها الشفاء لنفس مضناة معذبة ، والرجاء لقلب يائس موجع ، والماء لروح صادية ·· مهجرة ·

لقيته فعرفت فيه — من أول نظرة — بلا أى مبالغة ولا ادعاء ، حبيب الروح وأنس الحياة ، ولم أجرؤ أن أعترف حتى لنفسى ·· بهذا الأمر ، بل زعمت لنفسى أننى ارتحت اليه مجرد ارتياح ، فلقد كان مخلوقا مثقفا رزينا لطيفا ، هادىء الطبع ، باسم الثغر ، حلو الحديث ·

كان شابا وسيما ذا مركز محترم وأصل طيب ، وثقافة عالية ، وقد تعددت زيارته لنا بعد التعارف وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين

أفراد العائلة جميعا ٠٠ حتى أضحى على مر الأيام كواحد منها ٠٠ وأصبح الصديق الحميم للزوج والأخ والوالد والوالدة ٠

وبدأت أحس بالتطور الجديد فى نفسى الثائرة ومشاعرى القلقة وأعصابى المتعبة ، فهدأت الثورة ، وضاع القلق ، وتبـدل التعب راحة ٠

أى والله يا أخى ، ما عدت أحس بحزن ولا قلق ، ولا ارهاق بل أصبحت أحب الحياة وما فى الحياة ، ولم أعد أضيق بكل شىء ذرعا ، وأحس من كل جلسة مللا ٠٠ بل أخذت أشعر بأن هناك ما ملأ الفراغ وآنس الوحشة ، وكنت أجلس واياه لنقرأ فى كتب الشعر والأدب التى جلبها الى ونتناقش فيها ونتبادل الرأى ، وكنت أحس من ذلك بلذة أى لذة ، ومتعة أى متعة ٠

لقد بدأت أتذوق الحياة ، وأعرف ما معنى أن يعيش الانسان مع صاحب مثقف لطيف رقيق ٠

وفجأة انقطع ٠٠ منعه الزوج عن زيارتنا ٠ وتركنى أشبه بمجنونة حائرة ٠٠ وظمأى مسغبة ٠

وأقول الحق أنى لم أستطع المقاومة ولا النفاق ولا المداراة ، فارتميت طريحة الفراش ، وكلفت والدى بالتنقيب عنه ، وخرج أبى ولم يعد الى الدار الا به ٠

واعتذر عن غيابه وأنبأنى انه لم يعرف بنبأ مرضى الا من أبى وأنه حضر فى التو عندما علم ٠

واستمر يعودنى حتى كتب لى الشفاء وعادت الى بعـودته حياتى ، وأشرق الكون بعد طول ظلمة وعبوس ٠

ولم أعد منذ ذاك الوقت أطيق البعد عنه لحظة واحدة ، وما عدت أكتم حبى بين جوانحى بل أطلقته متحررا صريحا من الحنايا ٠٠ وما عدت أخشى شيئا ٠٠ فاذا تأخر موعد زيارته استحثثت مجيئه

بالتليفون ، وبت أغار عليه من لمس الهواء ، وأعاتبه اذا قصر يوما فى الزيارة ٠

ولست أريدك أن تفهم من قولى أطلقت حبى متحررا صريحا من الحنايا أنى قلت له انى أحبه ٠

لا ٠٠ لا ٠٠ انى ما قلتها قط ، وما قالها ٠

ما قلتها وما قالها ٠٠ ولكن كل فعلنا كان يوحى بها ٠٠ وينم عليها ٠

مرت على علاقتنا هذه ثلاث سنوات ، والحب بيننا متأجج والهوى مستعر ٠٠ لا تنطفىء له نار ولا يخبو له أوار ، حتى بات لكل منا حقوق على صاحبه أقوى من حقـــوق الأزواج والآباء والأبناء ، وأصبح هو كل شىء فى العائلة ، فأى أكلة تعجبه تطهى له ، وان تأخر يوما عن الطعام لم يجسر انسان على قربه حتى يتصدر المائدة ٠٠ فأشعر بالسعادة تفعم جوانحى وأنا بجانبه يروى لى النكات الحلوة والأحاديث الطريفة المسلية ٠

وفى ذات يوم ألقى لى بأول رسالة يكتبها الى ويبثنى فيها حبه ولواعجه ٠٠ ألقاها الى بطريقة مترددة خائفة وجلة مستترة ٠٠ فقد دسها لى فى كتاب دون أن يعنونها باسمى كأنما هى مرسلة الى مجهول ، وكانت رسالة حارة ملتهبة تذوب شوقا وتزفر جوى ٠٠ ولا أكتمك القول أنى ما ســعدت فى حياتى سـعادتى فى لحظة قراءتها ، أو على الأصح التهامها ٠

وطالت غيبته فترة بعد أن دس لى رسالته الممتعة ، وكنت أذوب شوقا اليه فحادثته بالتليفون وسألته متخابثة عما اذا كانت الرسالة الموجودة فى الكتاب تخصه ، وعمن يقصد بها ٠

ورد على بأنها شىء تافه كتبه فى فراغه ورجانى الا أعيرها أى اهتمام ٠

ولم تضايقني مغالطته . فقد كنت واثقة من أنه يعنيني بها ولم أملك سوى أن أقول له ضاحكة :

ـ الله يسامحك •

ومرت الأيام وكل منا يخرج هواه ويكتمه ، ويبوح به ويحبسه ٠٠ يبوح به فعلا ويكتمه قولا ٠٠ لساننا فى صمت وأعيننا وقلوبنا وأرواحنا فى صخب وضجيج •

أقوالنا هادئة ٠٠ وأفعالنا ثائرة هادرة • كان يكتب لى الشعر الحار على قصاصات من ورق يرفقها بكتبه ، وكان يطلب من الاذاعة أغانى المحببة • فيهيج منى كامن الشوق وزائد الحب •

وطال بنا الهوى الشريف الطاهر المكبوت حتى أخذ يعصف بحياتنا ، فبدأت تصيبه فى الصيف الماضى نوبات عصبية ، وأخذ جسده يذبل ، وعوده يجف ، حتى غاب عنا ذات يوم فجأة ٠٠ وكنت فى الشهر الأخير وعلى وشك الدخول فى المستشفى للوضع •

ولم أتصور قط بعده ، فتوسلت اليه أن يحضر فلبى الرجاء ، وأمضيت مدة الولادة وهو ساهر على راحتى لم يفارقنى لحظة حتى انتهيت من الوضع وغادرت المستشفى سليمة معافية •

ولم يكد يستقر بنا المقام بعد الوضع حتى وجدته يزورنا فجأة ويعلن أنه قرر نهائيا عدم السكنى فى بغداد ، وأنه سينقل محل اقامته بعيدا عنا لأسباب صحية ، وأن الأطباء أشاروا عليه بتبديل الجو نظرا للنحول الذي أصابه •

وبعد سفره بساعات كتب الى رسالة يصارحنى فيها لأول مرة بحبه الجارف الفياض ، ويصارحنى بأن سبب سفره الحقيقى هو حبه لى ورغبته فى البعد حتى لا يكون سببا فى مأساة عائلية ، وسألنى أن أكتب له باستمرار •

وهكذا رحل بعد ما أودعنى قلبه الذى يقطر حبا وألما ولوعة ،

واحسست بالمرارة والحزن ، مرارة الفرقة وحزن القطيعة ، ولكن لم يكن أمامى سوى الصبر والتعلل بالكتابة ·

ومرت الأيام وأنا أكتب له وأحدثه بالتليفون على بعد الشقة

وطال البعـد وأنا أصبر عليـه وأتجلد ، حتى ذوى منى ناضر الحياة ، وييس زاهر العود ·

ورقدت على الفراش أنا والموت سواء ·· لا أتمنى شيئا سوى لقاء بعد طول فرقة ·· ووصل بعد طول نأى وبعد ·

وكأنما أراد القدر أن يمعن فى التنكيل والتعذيب ، ويبعد عنى كل أمل فى لقاء أو رجاء فى وصل ·

فاذا بى ·· أنا التى أنتظر منه عودته من غيابه الطويل ، أسمع أن الأهل قد قرروا السفر الى خارج العراق ·

ولم أطق على قرارهم صبرا ، فأرسلت اليه أستدعيه ، وأعلن أن صبرى قد نفد ·

وحضر الى فى النهاية ·· وصارح كل منا صاحبه بحقيقة ما فى نفسه وسألته أن يضع للمسألة حدا ·

وانبأنى بأنه على استـعداد لأن يفعـل من أجلى كل شىء وأن يفتدينى بروحه ·· ولكنه سـألنى أن أتروى وأدرس الأمور بعين الحكمة والعقل ·

أى عقل يا أخى وأى حكمة ! وهل ترك لى الهوى حكمة وأبقى لى عقلا ! ؟

أنا مجنونة ·· تائهة ·· حيرى ·

أما من معين ؟ أما من منجد ؟

أغثنى يا أخى بنصح منك !

فقط لا تنس شيئا واحدا وهو أنى أحبه ·· أحبه ·· أحبه ·· وأن الحياة بغيره ·· مهما كان فيها ·· أهون منها الموت ·

(المخلصة : ليلى)

ماذا أقول لها بعد كل هذا ؟ ٠

وماذا يستطيع أن يقول لها أى قارىء منكم ؟ ٠

لقد قلت انه عندما تزج بنا الأقدار فى مثل هذه الأزمات يتعذر علينا الخلاص الا بأحد طريقين : الأول على حساب تمزيق مشاعرنا واحتمال الحرمان ٠ والثانى على حساب تمزيق التقاليد وتحطيم الأصول ٠

ولكن يبدو لى أن الطريق الأول فى هذه الحالة متعذر وأنه ليس هناك بد من الخلاص بالطريق الثانى وهو تمزيق التقاليد وتحطيم الأصول ٠٠ وفراق الزوج والأبناء وتكملة الحياة مع الحبيب ٠

ولكن هل هناك فى هذه الحالة بالذات تمزيق أصول وتحطيم تقاليد ؟ لا أظن ٠٠ ! فانى لا أستطيع أن أمنح طول الحادثة أثرا لتقاليد أو أصول حتى الابنة ولدتها الأم مكروهة مبغوضة ٠

لقد قلت رأيى وأنا بعيد عن مكان الواقعة ، جاهل بأصول بيئتها وتقاليدها ٠

هل يستطيع أحد من أهل البلدة أن يفتينا ؟

يا أهل العراق ٠٠ أفتونا أفادكم الله ٠

★ ★ ★

وأخيرا وصلت الفتوى ٠٠ وحلت العقدة ٠٠ فتوى من السماء ، وحل من عند الله ٠٠ لقد أودى بها الداء ٠٠ وأنقذتها العلة ، وشيعها القدر بضحكة ساخرة تكاد تقول : هاكم امرأة آثمة !

امـــرأة منتـقـمة

يا للقدر العجيب ·· الم تجد هذه المخلوقة من تسلط عليه سياطها سواى ؟·· الم تجد من هؤلاء البشر سوى ولدى وزوجى ؟ !

حدثتنى صاحبة القصة قالت :

كنت فى حالة انهيار تام عندما ذهبت اليها · كنت أما ثكلى ·· لم يمض على وفاة ابنها سوى بضعة أيام ·

كنت أشبه بحطام ·· لم يعد به من الحياة رمق ·· فلقد كانت الصدمة شديدة الوقع على ·· أشد مما يمكن أن يخطر على بال انسان ·

كانت فجيعتى فى ولدى فجيعة مضاعفة ·· وكانت ضربة القدر التى وجهها الى بموته ضربة مزدوجة ·· احداها افقدتنى اياه ·· والأخرى أفقدتنى كل ما يمكن أن أتعزى به أو أتعلق فيه ·· أفقدتنى كرامتى ·· وثقتى فى الحياة ·

لقد مات منتحرا ·· من أجل امرأة ·· وكان هذا آخر ما يمكن

أن أتصور أن ولدى يقدم عليه ·· لقد كنت أراه دائما شديد الايمان ·· قوى الثقة بنفسه وبالحياة ·· يشع من وجهه الأمل ·· وتفيض قسماته بالمرح والرضا ·

كنت أعرف أنه يحب ، وأنه كالنحلة يرشف من كل زهرة قطرة ·· ولم أنكر عليه هذا ·· فما من شاب فى ربيع العمر يخلو قلبه من بذور الحب ·· وما حاولت مرة ان أتدخل فى أموره الخاصة ، بل كان أقصى ما أفعله هو أن أدعو له بأن يهديه الله ويوفقه الى الزوجة الصالحة ·

ولقد خيل الى أن الله قد استجاب دعائى وأن قلبه قد استقر على احدى الزهرات فقد بدأت مواعيده تنتظم ·· وكف عن السهر وعن عبث الشباب ، وحمدت الله الذى هداه بهذا الحب الجديد ·· وتمنيت أن تكون صاحبته من أصل طيب ، يشرفنا نسبه ، وأن تستقيم أموره معها ، حتى تكون له الزوجة المنشودة ·

وبدا لى فى حبها قريرا هانئا ·· دائم الاشراق ، دائم الفرحة ، حتى لقد أحببتها أنا دون أن أراها ودون أن يحدثنى عنها الا لماما ·· فلقد كنت أحس من هنائه هنائى ، وأستمد من رضاه رضاى ·

ماذا يكون من أمرى ·· بعد كل ما وصفته لك ·· عندما أعود الى الدار ذات مساء عقب زيارة بعض الأقارب ، فاذا بى أجد ضجيجا فى الدار ، واذا بى ألمح عربة الاسعاف تقف أمام الباب ·· ثم أستوضحهم الأمر فيقولون لى ان ولدى انتحر ؟

لقد سقطت على الأرض صريعة بلا حراك ·· فلما أفقت اندفعت كالمجانين ·· أسأل عنه وارتميت على جسده ، غير مصدقة أنه مات ·· أو قتل نفسه ·

هو يقتل نفسه ؟ ! الانسان القرير السعيد ·· الشديد الايمان ، والقوى الأمل ·· ينتحر ؟

كيف ؟!!·· كيف يمكن أن يفعل هذا ··؟

لقد كان مثلا لانسان سعيد وما أحسست قط أنه يشكو ألما أو يضمر فى نفسه حزنا ·· أيمكن أن يكون قد انتحر بسبب من يحبها ؟

لا ·· لا ·· ان ولدى لا يمكن أن يقدم على ذلك ·

ومع هذا ·· فقد حملت الينا الرسالة التى تركها قبل أن يموت ·· الجواب القاطع ·· بأنه انتحر ·· من أجل امرأة ؟

لقد كانت الرسالة تحمل الى ·· الصدمة الثانية ·

لقد وجدوها فى ثيابه وكانت موجهة الى صاحبته وكان بها ما يلى :

« عزيزتى ···

أكتب اليك لأقول لك كلمتى الأخيرة قبل أن أفارق الحياة ·

لقد حزمت أمرى على الانتحار ، ولو تنبأ لى انسان قبل اليوم بأنى سأموت منتحرا لرميته بالجنون ··· ولقلت انه انسان مخرف ·· فما احتقرت فى حياتى انسانا كالمنتحر ·· ولكنى الآن أحس أن من الغباء أن نبقى على قيد الحياة ·· قولوا اننى جبان واتهمونى بما شئتم ·· فما عدت أعبأ بكم وبدنياكم ·· لقد أضحيت انسانا يائسا ·· يائسا من كل شيء ·

لقد أحببتك ، وما بى من حاجة الى أن أخبرك بمدى حبى لك ·· لأنك تعرفينه خير معرفة ·· ولأنى لم أكتب هذا لأشرح لك حبى ·· لأخبرك برأيى فيك ·· لقد أحببتك حبا من نوع لم أعهده فى نفسى ·· حبا ملؤه الاحترام والثقة · وأحسست أن نفسى قد شدت اليك ، وأن مصيرى قد ارتبط بمصيرك ، وأضحيت أنظم حياتى باعتبار أنك قد بت جزءا منها · وأن أحدنا لم يعد له عن الآخر غنى ·

ولست أزعم أنى أريأ بالمرأة عن الخيانة •• وأتوقع منها الطهر والعفة ، فأنا شديد الخبرة بخيانة النســاء •• ولكن أنت • أنت بالذات •• كنت أتوقع منك أن تكونى خيرا مما كنت • كنت أرى فيك نسيج وحدك • كنت أضعك فوق مستوى البشر •

ورغم كل هذا •• ما أظننى كنت مقدما على الانتحار لو أنك خذلتنى •• وبددت أملى بطريقة طبيعيــة •• وبخيانة عادية •• كغيرها من الخيانات •

بل يخيل الى ، لو أنى ضبطتك مع أى انسان آخر لكان الأمر يمكن احتماله ، وما كان مثل هذا اليأس يطبق على فيسلبنى صوابى •

أجل •• لو أنك خنتنى مع أى انسان •• غير أبى •• لاستطعت أن احتمل •

أما أن أفجع فيك ، وأنت كل شيء •• وفيه وهو أبى ، ويعرف أننى أحبك وأنك منتهى أملى •• فذلك ما لا أستطيع احتماله •

لست أدرى هل تحبينه حقـــا كما سمعتك تقـــولين له أم أنك تخدعينه ؟ !

هل تخدعيننى ، أم تخدعينه ، أم تخدعين كلينا ؟

وانى فى حيرة شديدة ، فهو رغم انه أبى ما زال يفيض قوة وفتوة • وما زالت به القدرة على فتنة النساء واغرائهن •

انى فى حالة يأس مخيف •• وانهيار تام ، لقد فكرت فى أن أقتلك ، أو أقتله •• فلم أســتطع •• لأنى أحبك وأحبـــه رغم كل ما فعلتماه بى ، وأخيرا فكرت فى أن أقتل نفسى فوجدت أن هذا هو خير حل ، فما عدت فى حاجة الى نفسى لأنى كرهت الحياة ، وما أظن هناك أحدا فى حاجة الى •• اللهم الا مخلوقا واحــدا •• أحس بالندم من أجله ، وهو أمى •

أمي الطيبة المخدوعة ·· التى أحس أنى اتركها وحدها كاليتيمة فى مأدبة اللئام ·· وكالشاة وسط عصبة الذئاب ·

انى أحس أنى جبان لأنى تركتها وحدها ·· بينك وبينه ·

ولكن ماذا أستطيع أن أفعل ؟ ان الله معها ·· فهى امرأة مؤمنة ·· اما أنا فقد كفرت بكل شىء ·· وانهارت ثقتى فى كل شىء ·· وبت أشعر أن شفائى فى الرحيل عن دنياكم ·· دنيا الزيف والخداع » ·

★ ★ ★

تلك يا سيدى هى الرسالة التى تركها ولدى ·· أو الطعنة الثانية التى وجهها القدر ·

ولست اكتمك القول ·· أنها رغم كونها شر ما يمكن أن تصاب به زوجة لم تروعنى كثيرا ، فقد تركتنى الصدمة الأولى ــ موت ولدى ــ وأنا فى حالة ذهول وأصابتنى بألم جعل كل ألم غيره يتضاءل ·· أو قل انها قتلتنى « وما لجرح بميت ايلام » ·

وهكذا مضت الأيام الأولى عقب الحادث وأنا فى شبه اغماء ، لا أكاد أهتم لشىء أو أحس بشىء ، حتى بدأت أفيق لنفسى وأتطلع حولى فاذا بى أوشك أن أسلب الطير الآخر ·

وأحسست بكره شديد لتلك المرأة التى أصابتنى بتلك النوازل والكوارث ·· والتى سلبتنى أعز ما لدى ·· ولدى وزوجى ·· ووجدتنى أقف أمامها وجيدة عزلاء ·

وفى ذات يوم صممت على أن أنهى الأمر وأن اذهب لمواجهتها ·· وأريها الرسالة التى تركها لها ولدى ، وأسألها أن ترحمنى ·· وتترك لى زوجى ·

وذهبت اليها ، وطرقت بابها ·· وأنا أحس أنى ذليلة كسيرة ·· كأنى سائلة أستجدى ·

ورأيتها لأول مرة ·· مخلوقة صغيرة تملك أمضى وأفتك ما تملكه امرأة من روعة وفتنة ·

وبدأت حديثى معها فى لهجة مستعطفة متوسلة ·· وهى تضع ساقا على ساق ، وتتشاغل بتمشيط شعرها · وأعطيتها الرسالة ·· فأخذت فى قراءتها دون أن يبدو على وجهها اى علامة من علامات الحزن والتاثر ·

واخيرا رفعت حاجبيها وتساءلت فى دهشة :

ـ لست أدرى ماذا تريدين ؟

ـ أريد زوجى ·· رديه الى · يكفى أنى فقدت ابنى ·

ـ اسمعى يا سيدتى ·· انا لست مسئولة عن كل انسان ينتحر ، ولا أستطيع أن امنع انسانا من حبى ·· هل تريدين أن افعل لك شيئا بعد هذا ؟

وأحسست أن قولها قد مزق حشاى ·· وعزت على نفسى أن أهينها الى هذا الحد ·

ولم أستطع سوى النهوض والانسحاب ذليلة كسيرة ·· كما اتيت ·

يا للقدر العجيب ! الم تجد هذه المخلوقة من تسلط عليه سياطها سواى ·· الم تجد من هؤلاء البشر سوى ·· ولدى وزوجى ؟

ورفعت بصرى وأنا أغادر الغرفة ·· فواجهتنى صورة امرأة معلقة بالجدار ، وأحسست من مرآها برجفة تسرى فى بدنى ·

ووجدتنى دون تفكير أسال عمن تكون ·

وأجابتنى المرأة فى شىء من التعجب :

ـ انها أمى ·· اتعرفينها ؟

أمها !! ورأيت الأعوام تترى امامى ، واذا بالماضى يتجدد · كيف لا أعرفها ؟· وقد نزعت منها خطيبها فى زمن مضى ·· لقد سلبته

منها بعد أن أحب كلانا الآخر ولما تمض بضعة أشهر على خطبته لها ٠

أجل ٠٠ لقد كان زوجى الذى انتزعته منى هو الخطيب الذى انتزعته من أمها فى زمن مضى ٠

وتذكرت نصيحة أمى يومذاك ٠٠ وتحذيرها اياى بألا أتزوجه ٠٠ ولا أسلبه من خطيبته ، وقولها :- ان الظلم لا بد مردود ولو بعد حين ٠

ان القدر لم ينس فعلا ٠٠ بعد ثلاثين عاما ٠

وخرجت أتعثر فى أذيالى محنية الظهر ، مطأطئة الهامة ٠

اللهم هبنا من لدنك رحمة واغفر لنا ، واعف عنا ٠

لقد كانت المسألة كلها ٠٠ لا تعدو أن تكون ثأرا قديما ٠

امــرأة قــاتــلة

وتطاير من نفسى الحب والطيبة والخلق والهـدوء والاستكانة ·· تطاير كل هذا ولم يبق فى نفسى سوى احساسي بالجرح ·· ووقع بصرى على مسدسـه الذى يحتفـظ به فى دولابى ، وبحركة لا ارادية مددت يدى وتحسس اصبعى الزناد ثم ضغط عليه ·

اسـقنيها فقــد رايت بعينى
فى قــرار الجحيم أين مكانى

اسقنيها ·· فقد نضب معين الروح وجف ماء القلب ·· اسقنيها علها تغرق اكداس المرارة وتفتت صخور اليأس ·

اسقنيها علها تطفىء حرقة فى النفس ، وتبل سعيرا فى الفؤاد ·· فان لم تفعل فلعلها مطفئة ذبالة حس ، هو كل ما تبقى لى لينكا جرحى بين آونة واخرى ، ويذكرنى بأن كومة الحطام التى تبقت منى مازالت كائنا حيا يحس ويتالم ويفكر ويتذكر ·

اسقنيها علها تذهب ببقية وعى وفضلة حس ·· هو كل مايربطنى بالحياة ويشدنى الى آلامها وأوجاعها ·

انى أكره الحياة ، لأنها شىء عويص غير مفهوم ·· انها لغــز محير ·· أوقد كتب على الانسان أن ينتهى دائما ـ مهما سلك من سبل ـ الى مثل هذا المصير البائس التعس ؟

ألا يمكن أن يغير مسلكنا فى الحيــاة ـ اذا قومناه ـ خاتمتنا الشقية ؟ أم أن الشقاء ما دام قد كتب علينا فلا بد من وصولنا اليه مهما أجهدنا أنفسنا فى تجنبه والفرار منه ؟

لو عرفت انى سانتهى الى هــذا المصير ، لسلكت اليه اهــون السبل ·· ولو عرفت أنه سواء علينا كنا مخلصين أو منافقين ·· وسواء كنا من أصحاب المبادىء والمثل ، أو كنا أوغادا لئاما ·· وسواء كنا ذوى قلوب عامرة بالايمان والحب ، أو كنا ذوى قلوب جامدة قاسية ، فان مآلنا واحد ومصيرنا لا يتبدل ·· لو كنت اعرف هذا للفظت المبادىء وحطمت المثل ، ولسرت الى مصيرى حتى بلغته ، جامدة القلب ، عديمة الحس ·· خائنة كاذبة منافقة ·· كغيرى من الكاذبات الخائنات المنافقات ·

كنت صغيرة ، ولم اكن أتصور الحياة قط يمكن أن تمعن بنا فى السخرية الى هذه الصورة ··· وكنت احاول دائما ان افكر بعقلى السـليم وتفكيرى المتزن ·· وكنت أنظر الى الحيـاة نظرة هادئة مستوعبة ، أحاول أن أضع الشىء دائما فى موضعه ·· وكنت اهدف فى حياتى الى أشياء ما ظننت قط أن الحياة ستبخل على بهـا ·· وخاصة اذا ما سلكت اليها الطريق الصواب ·· الذى يضمن لى أن يوصلنى اليها ·

كنت دائما مخلوقة طيبة ·· ما فكرت فى أن أوذى أحدا ، أو أتكبر على أحد ·· ورغم هذه السنين الطوال التى قضيتها تحيطنى مظاهر الغنى والثراء ما أحسست فى قرارة نفسى بمتعة من هذه المظاهر ، فقد كنت أكرهها وأكره أن أتميز عن سواى بما لا فضــل لى فيه ،

وكنت لا أرى فيها سوى مظاهر زائفة وشكليات تافهة لا يمكن أن تبعث فى نفسى احساسا بميزة أو شعورا بفخر ·

هكذا كنت دائما ·· أرستقراطية ثرية فى مجرد المظهر ، أما فى باطنى فقد كنت مخلوقة منطوية هادئة بسيطة طيبة ·

كنت افهم الحياة جيدا ، وأدرك مدى زيف مظاهرها ، ولذا فلم أكن أطمع منها فى اكثر مما يمكن أن تطمع فيه اية فتاة بسيطة عاقلة ، وهو أن أكون زوجة محبة وفية لزوج محب وفى ·

ولم اكن أظن أبدا أن هذا المطلب بالأمر المستعصى ، ولم اكن أظن هذه الأرض الواسعة ، ستبخل على فتاة طيبة بند طيب ·· وكنت أعتقد أن المخلوق الطيب اذا ما سلك الطريق السـوى فلا بد له أن يصل الى هدفه البسيط المعتدل ·

ومع ذلك فقـد اضطربت بى ظروف الحيـاة ، وأجبرتنى على الرحيل عن أرض الوطن ، ولم يخطر ببالى وقت الرحيل أن الغيبة ستطول ·· بل ظننت الرحلة مطافا قصيرا الى العودة منتهاه ·

وكان الحلم الجميل يداعب نفسى ·· وكان الأمل الحلو يتراءى لى فى أفق الحياة المشرق ·· وما أظننى كنت فى لهفتى على صنو النفس بالشاذة التفكير ، أو المرتكبة أمرا ادا · فمـا كنت ــ كما قلت ــ أكثر من فتاة ، وأى فتاة لا تتلهف الى صنو النفس ، وتوأم الروح ، وشريك الحياة ؟

لم يكن عجيبا اذن أن أتلهف على الحب ، بل العجب كان فى ألا أتلهف عليه ، فتلك هى طبيعة البشر وأنا بشر قبـل أن أكون غنية أرستقراطية ·· وحتى لو كانت الأرستقراطية تتلف قلوب الفتيات وتخمد مشاعرهن وتصيبهن بشذوذ فى التفكير فقـد كنت أنا غير ذلك ، لأنى ــ كما قلت ــ كنت ضعيفـة الاحساس بتلك المظـاهر مبغضة لها ·

وهكذا رحلت عن أرض الوطن ، وبنفسى لهفة الى المجهول الذى يتلهف عليه القلب ويحن اليه الفؤاد .

وفى خلال الرحيل صادفته .. ذلك المخلوق الذى استطاع أن يتقمص الأمل المنشود والأمنية الحائرة .

لا أريد أن أبرر حبى له ؛ أو أعلل أسبابه .. فانتم أدرى بأن الحب شىء لا يمكن تعليله ولا تبريره ، اننا عندما نحب لا نستطيع أن نجد لحبنا أسبابا أو عللا .. فهذا شىء يصاب به الانسان كأى مرض لا تجدى فيه أية رقابة .. انه شىء يفرض علينا فرضا .. لا سبيل لنا الى مقاومته ، ولا الوقاية منه .

هذا شىء مفروغ منه ، وقضية مسلم بها ، ولا اظن احـدا منكم يجاهله أو منكره ، فكما أن الانسان لا يملك أن يوقف الصواعق ، أو يمنع الزوابع ، أو يهدىء الزلازل .. فهو ايضا لا يستطيع أن يتقى أخطار الحب ، أو يتجنبه ، أو يجعل نفسه بمنجاة منه .

ورغم كل ذلك فانى لا أعـدم المبررات التى قد تخفف من روعة هؤلاء المرتاعين ، وتحد من دهشتهم وذهولهم ، لأننى أحببت رجلا فقيرا من غير طبقتى !

لقد كنت فى حاجة الى الحب . وكان هو وحده ــ فى هذه الغربة الطويلة ــ الذى يملكه ، وبمرور الزمن وطول الغربة ، وفرط حاجتى الى ذلك الحب ، لم أملك سوى قبوله . ومبادلتى اياه الحب المدخر فى قلبى للالف المنتظر والخل المرتقب !

وهكذا وجدت الحياة قد كرمت وجادت على بأمنيتى ولكنها لم تمنحنى اياها بغير ثمن .. بل بثمن كنت على اتم استعداد لأن أدفعه عن طيب خاطر .

كان الثمن باهظا فى نظر الناس ، الناس المخدوعين بزيفه

بالأوضاع وأوهام المظاهر . أما فى نفسى فلم يكن باهظا بل كان اتفه من أن يسمى ثمنا .

لقد رأى من حولى فى حبى له ، قلبا للأوضاع وخرقا للتقاليد .. ونصحونى بأن أعدل عن هذا الحب ، وأنبأونى بأنى ما زلت فتاة طائشة مخدوعة بأوهام الحب وبريقه الزائف الخداع ، وأن هـذا الطريق السرابى الشائك الذى أحاول السير فيه والذى أتوهمه مليئا بالورود والرياحين .. لن يلبث حتى يذهب سرابه ، وتذبل وروده ، وتبدو وحشته وقفره .

ولكنى لم أبه لآرائهم .. فقد كنت مقتنعة تماما بمبادئى فى الحب وآرائى .. وكنت أعرف تماما أن الطريق الذى أوشك أن أسير فيه سيحقق بغيتى وينيلنى مطلبى .

وهكذا أصررت على المضى فى طريقى ، وأصروا هم على أن أتجنبه وأنكص عنه ، ولكنى ضربت بأصرارهم عرض الحائط ، فثارت ثائرتهم وجن جنونهم ، وهددونى بأن يحرمونى من الارث ويتخـلوا عنى ويعلنون براءتهم منى .

هذا هو الثمن الذى كان على أن ادفعه .. ثمن فادح فى مظهره .. بخس فى حقيقته .. لقد هتف بى القلب الخفاق النشوان : ادفعى الثمن فانه يستحق أضعاف أضعافه .

ودفعت الثمن راضية مغتبطة ، ورضيت من أجله بأن أفقد عطف الأهل والأصدقاء ، وأن أقطع كل صلتى بمن عداه ، وأن أبدو فى نظر الناس طريدة مشردة منبوذة .

ومع ذلك فما أحسست قط بأى ندم ، وما رأيت فى فعلتى أية تضحية .. فقد كان كل ما خسرته من عطف ومال لا يكاد يعادل مثقال ذرة واحدة من الهناء الذى كنت أحسه بقربه .

وتزوجنا وبدأنا حياتنا معا .. حياة رغدة .. هانئة .. بسيطة

٠٠ كان كل همى فيها أن أهيىء له الراحة ، وأبدو له قريرة راضية ، وأزيل من نفسه أى احساس بأنى قد ضحيت من أجله . ولم يكن ذلك بالأمر العسير ، فقد كنت فعلا قريرة راضية قانعة ، وما كنت أحس قط أنى قد فعلت أية تضحية ٠

ومرت بنا الأيام الأولى للزواج ، وأنا أتمتع بقدر من السعادة ٠٠ ما أظن أن الثراء والمظهر كانا يستطيعان أن يهيئا لى شيئا منها ٠

لقد تحققت مبادئى فى الحياة ٠٠ وثبت لى أن المخلوق الطيب اذا ما سلك الطريق السوى ، فلن يبخل عليه القدر بتحقيق أمانيه ٠٠ وأن خير ما نفعله فى الحياة لكى نضمن سعادتنا هو أن نختار الهدف الصائب ، ثم نسلك السبيل اليه متخطين فى عزم كل ما يصادفنا من عقبات تحاول أن تجنبنا الطريق ونغرينا بغيره ٠

وكان يعاودنى حنين الى الأهل بين آونة وأخرى ٠٠ ولكن قربه كان يصبرنى على فرقتهم ٠٠ وكان فرط محبته وتقديسه لى يبعث فى نفسى عزاء دائما عن كل ما فقدته من عطفهم ، وتقنعنى أنه يستحق أن أفقد من أجله كل شىء ٠

وانقضت الفترة الأولى من الزواج ، ونحن فى عزلة تامة عن الناس ٠٠ وكنت دائمة الضحك والمرح ، محاولة فى كل وقت أن أبدد ما يمكن أن يخيم علينا من سحب السآمة والملل ٠

وقد تتساءلون : من أين تأتى سحب السآمة والملل ، وعلى من تخيم ، وأنا القانعة الراضية الهانئة ، وهو الذى ما كان يحلم قط بأن يلقى مثل هذه التضحية ؟

ولكنى لا أجد مفرا من الاعتراف ٠٠ بأنى رغم كل ما فعلت من أجله لم أستطع أن أمنع هـــذه السحب من التسرب داخل وكرنا والاحاطة به ٠٠ وبدا لى أنه لا يحاول كثيرا أن يعاوننى فى مهمتى وأنه لم يعد يهمه أن يكتم ضيقه ٠

وهكذا وجدت نفسى رويدا رويدا فى موقف عجيب ، وتطور الأمر بى حتى انقلبت الآية بيننا ، فبت أستجدى مرضاته بعد أن كان يتلهف على رضاى ٠

وبدأنا نخرج الى المجتمع ، ونختلط بالناس ، فقد أدركت أن طول الوحدة يوشك أن يعصف بحياتنا ، والتمست له العذر فيما أصابه من ملل ، لا سيما أنى وجدته ـ بعد طريقته الجديدة فى العيش ، واختلاطنا بالناس ـ قد عاد الى سابق رضاه وذهب عنه سخطه وتبرمه ٠

ومرت بى بعد ذلك فترة عجيبة لم أكن أدرى أنا نفسى مبلغ رضاى عن الحياة ، ولا مبلغ سعادتى وهناءى ٠٠ ولكن الشىء الذى كنت واثقة منه هو أنى كنت أبذل كل جهدى لأحافظ على سعادتى ٠٠ فقد كان يفزعنى أن أجد نظريتى فى الحياة قد خابت ، وأن نظرية من حولى قد أصابت ! وأن قولهم عن الطريق السرابى والورود الذابلة يمكن بمثل هذه البساطة والسهولة أن يتحقق ٠

لقد كرهت أن تفشل جهودى فى الاحتفاظ بحياة مثلى ، وتفشل لغير ما سبب معقول ولغير ما ذنب جناه أحد ٠٠ سوى خمود المشاعر وركود الحياة ، وصممت على أن أبذل كل ما فى وسعى حتى لا أكون موضع شماتة الشامتين ٠٠ وأخذت أتفانى فى حبه وخدمته ٠٠ وفعلت ما لا تفعله خادمة كرم معها القدر فاغرى بها سيدها وأقدم على زواجها ٠٠ فهى تحاول الاحتفاظ به !

أجل ! لقد انقلب الحال فبدا كأنه هو صاحب التضحية ٠

ولم أكن أشك فى أن المثابرة والتصميم وقوة العزيمة والصبر يمكن أن تبلغنا أمانينا وتحقق مآربنا ، مهما بدت صعبة التحقيق بعيدة المنال ٠٠ ولقد صدق ظنى فبدأت أستعيد رويدا رويدا أرضى

المفقودة من السعادة والهناء وأحسست أننى أنقذت حياتى من شر الملل والسأمة ·

وهكذا استعدت رضا زوجى ، واستعدت هناءتى ·· باستعادته هناءته ، واستطعت أن أجزم أن ملله وتبرمه لم يكن أكثر من عارض طارىء ·

هذا هو ما استطعت أن أجزم به ·· حتى حدث ذات صباح حادث بسيط تافه ·

كنت فى خارج الدار أبتاع بضعة حاجيات كنا فى حاجة اليها ، وكنت أتممت كل أعمالى التى تعودت أن أقوم بها فى البيت فى كل صباح من تنظيف الآثاث وترتيبه وكذلك أعددت الطعام اعدادا مبدئيا ، وتركته للخادمة حتى يتم نضجه ·

وكان زوجى قد ذهب الى عمله ·· ولم يكن يعود منه قبل الساعة الثانية ·

وقد عقدت العزم على أن أعود الى البيت فى الساعة الواحدة حتى أتأكد من أن كل شىء على ما يرام ··

ووصلت الى البيت والساعة تدق الواحدة ، وحثثت الخطى على الدرج حتى وصلت الى الباب ودفعت فى ثقبه بالمفتاح الذى كنت أحتفظ به معى ، وهرولت الى المطبخ لأطمئن على الطعام ، فوجدت القدر يفور ولم أجد الخادم ، وبحثت عنها فى الحمام فلم أجد لها أثرا ·· وكان أول ما مر بذهنى هو أنها قد هربت ، وخشيت أن تكون قد سرقت بعض الحلى والنقود ، فأسرعت الى حجرتى لأطمئن على الصندوق الذى أضع فيه الأشياء الثمينة وأغلق عليه دولاب ملابسى ·

أسرعت الى حجرتى ودفعت الباب ، ولكنى لم أتقدم الى دولاب الملابس ، فما كانت بى هناك من حاجة الى الشك فى أنها قد سرقت

نقودى أو حليى •• لأنى بنظرة واحدة استطعت أن أتبين أنها قد سرقت شيئا أثمن من هذا •

لقد سرقت زوجى !

أجل ! لقد وجدتها هناك فى حجرة نومى ، وعلى فراشى وبجوارها الرجل الذى ضحيت من أجله بكل ما أملك •

لقد ضحى بى هو من أجل خادم !

ومرت بذهنى فى سرعة البرق •• المبادىء السامية •• والأهداف العالية ، والحياة المثلى ، والتضحية •

ولم أستطع أن أكتم ضحكة ساخرة انطلقت من شفتى •

اذن فقد كانت هى التى نجحت فى تبديد سآمته وتبرمه •

لقد كانت هى وحدها •• ولم تكن جهودى أو تفانى فى حبه وخدمته وراحته • لم يكن تصميمى وعزمى ومثابرتى وصبرى هو الذى حقق أملى فى اسعاده ، بل كانت هى !

وتخيلت الأهل والصحاب الذين ضربت بأقوالهم عرض الحائط ، والذين قلت لهم ان الحب هو كل شىء •• تخيلتهم حولى يرون المنظر الذى أبصره •• ترى ماذا هم قائلون ؟

أقسم أن أفكارهم عندما حذرونى لم تكن قد وصل بها توقع السوء والخذلان ، هذا الحد •

وران الصمت على الحجرة لحظة •• صمت الذهول والدهشة ، ثم وجدت وجهه قد علاه الحقد والغضب •• وسمعته يصرخ بى آمرا اياى بالخروج •

هكذا ! أنا أخرج ؟ طبعا •• لقد قطعت عليه متعته •• وشاركته فى خلوته •

وجن جنونى ، فقد وقع على فعله وقوع الصاعقة •

وتطاير من نفسي الحب والطيبة والخلق والهدوء والاستكانة ، تطاير كل هذا ·· ولم يبق في نفسي سوى احساسي بالجرح ·· ووقع بصري على مسدسه الذي يحتفظ به في دولابي ·· وبحركة لا ارادية مددت يدي ، وتحسس أصبعي الزناد ، ثم ضغطت عليه ·

وفي لمح البصر انطلق الدوي ، ثم وجدته أمامي يتلوى في الفراش متخبطا في دمائه !

وأحسست براحة شديدة ، ولم يتملكني أقل ندم ·· وغادرت الحجرة وارتميت على أقرب مقعد ·

★ ★ ★

انهم سيبرئون ساحتي ·· ولكن سواء عندي البراءة أم الادانة ·· فما عدت أهدف في الحياة الى شيء ·

لقد كنت فتاة طيبة مصلية ·· ولكني الآن لا اشعر في الطيبة والصلاة بأي عزاء ·

شيء واحد هو الذي أجد فيه عزائي ·· ولو كنت أعرف أن هذا هو مصيري لسلكت اليه من أول الأمر أهون السبل :

اسقنيها فقد رأيت بعيني   في قرار الجحيم أين مكاني

٦ رجـــال

رجـــل مغـــرور

وصمت برهة .. وحلا لى أن أقبل التحدى .. وأن أريهم أنى على مرحى وميلى الى المزاح .. قدير على الجد ، حــلال لمستعصى الأمور ، وأنى سآتى لهما بما لا يستطيعانه .

كنت أظن نفسي عاقلا .. وكنت أظن التجارب والسنين قد أحاطتنى بسياج منيع من الحكمة والتبصر .. كنت أظن ذلك .. حتى حدث ما حدث فعلمت أنى ما زلت مغرورا مأفونا .

وأنى سأظل الى الأبد طفلا كبيرا ، وأنى خدعت نفسى فحملتها من الثقة ما لا طاقة لها به .

بدأت القصة بلقائنا في لبنان .. عائلتان مصريتان تبتغيان الراحة والسكون فى مصيف هادىء .

وكان للقائنا فرحة شديدة .. يعرفها الغرباء الحائرون عندما يلتقون ببنى أوطانهم فى أرض غريبة .

ولم يكن هذا أول لقاء لنا .. فقد كانت بيننا معرفة قديمة نشأت

عن زمالة الزوجتين فى أيام الدراسة وعن صداقتى للزوج صداقة اللقاء العابر والتحية الخاطفة ٠

وجمعنا فى شهور الشوير فندق واحد وسكن متجاور وسرعان ما توثقت عرى الصداقة حتى أضحينا عائلة واحدة ٠

وكانت عائلتى مكونة منى ومن زوجتى ومن ابنتى فى السابعة ، وابنى فى الثالثة ، أما العائلة الأخرى فكانت تتكون من الزوج والزوجة وابنتهما الكبرى فى السادسة عشرة وابنتهما الصغرى فى الثامنة ٠

وكنا نكون فى جلستنا شلتين ٠٠ الشلة الكبرى مكونة من الأربعة الكبار : الزوجين والزوجتين ٠٠ والشلة الصغرى مكونة من الأربعة الصغار : الثلاث بنات والولد ٠

ورغم تفاوت الأعمار فى الشلة الصغرى فقد كان الانسجام بين أعضائها تاما والاتصال وثيقا ، وكانت تتزعمها ليلى الابنة الكبرى لصاحبى ، ولم تكن تبدو فى لهوها أكثر من طفلة غريرة لا فارق بينها وبين ابنتى ٠

وفى ذات ليلة وقد جلسنا ـ أعنى الشلة الكبرى ـ نتسامر فى احدى شرفات الفندق سمعنا صراخا صادرا من حجرة الأولاد فصاحت زوجة صاحبى تتساءل ، وقد استطاعت أن تميز فى الصراخ صوت ابنتها الصغرى :

ـ ما بك يا كوثر ؟

وسرعان ما أطل علينا وجه ليلى وعليه سيماء الغضب وأجابت أمها :

ـ لقد ضربتها يا ماما ٠٠ لأنها مزقت فستان العروس الذى صنعته لها ٠٠ ورسمت بالقلم فى احدى كراساتى ، وقد حذرتها من ذلك مائة مرة ٠

ـ أسكتيها يا ليلى وصالحيها ·· فلست أريد أن أسمع صوت بكائها ·· كونى عاقلة يا ليلى فانك أنت الكبرى ·

ـ وماذا أفعل لها ؟ لقد غاظتنى ·· ولا بد أن أؤدبها ·

وهزت ليلى كتفها ثم اختفت داخل الغرفة ·

ووجدت الأب يهز رأسه أسفا ويضرب كفا بكف ويقول :

ـ لست أدرى متى ستكبر هذه البنت ·· فيما مضى كانت البنت لا تبلغ السادسة عشرة الا وقد صارت امرأة لها ثلاثة أولاد ·· واليوم وقد بلغت السادسة عشرة فهى ما زالت تتعارك مع اختها من أجل فستان العروسة ·· ترى متى تعقل وتكبر ؟ !

وضحكت ·· اذ لم أر المسألة تستحق كل هذا الأسف من صاحبى وقلت له مهدئا :

ـ بكره تعقل وتكبر ·· دعها تتدلل فى كنفك وفى عزك ·· علام العجلة ؟

ـ أظن ستة عشر عاما كانت كافية لأن تعقل وتكبر وتقدر ·· ولكنها للأسف لا تقدر شيئا ·

ـ وماذا تريد منها أن تقدر ؟

وأجابت الأم ضاحكة :

ـ تقدر طبيعة الأوضاع فى الحياة ·· وتفهم أنها لا بد أن تصبح عما قريب زوجة مسئولة عن بيتها وزوجها وأما مسئولة عن أولادها ·

ـ هذه أشياء ستفهمها مع الزمن ·

ـ انها لا تريد أن تفهمها ·· انها لا تريد أن تفهم سوى اللعب والعرائس والمدرسة والتلميذات ·

ـ ولكن ماذا يقلقكما من هذا ؟ وأى شىء يدعوكما الى التعجل فيه ؟

ـ يقلقنا أنها مخطوبة ·· ولكنها ترفض الخطوبة · ترفضها

وتثور عليها بطريقة صبيانية جاهلة بلهاء ·· كأنها تظن أنها ستظل طيلة عمرها صبية تلعب فى بيت أبيها ·

ـ ولكنها على أية حال صغيرة ، وليس هناك خوف من أن تفلت منكما فرصة خطوبتها هذه ·· ان الفرص ما زالت كثيرة ·

وساد الصمت برهة أشعل الأب فيها سيجارته ثم عاد يدلى بحجته قائلا :

ـ أولا ·· هى ليست صغيرة بل كما قلت لك فتاة فى السادسة عشرة يعنى امرأة ناضجة ·· وفترة الخطوبة قد تستغرق سنة أو سنتين ·· فهى والحال كذلك لن تتزوج قبل الثامنة عشرة ، ولا أظن أن هذه السن تعتبر غير ملائمة للزواج · أما من حيث أن الفرص ما زالت كثيرة فأنا لا أرى هذا ·· أن الخطيب شاب مثالى لا عيب فيه ولا هنة ·· انه مهندس نابغة ·· كريم الخلق ، طيب الأصل ·· وافر الثراء ·· حسن المظهر ·· كل شىء فيه ممتاز ·· ولست أظن الانسان يصادف مثله كثيرا فى الحياة ·· فمن الغباء أن نرفضه لمجرد أنها لا تفهم طبيعة الأوضاع فى الحياة ·· انى أعتقد أن هذه الفرص لا تقبل على الانسان الا مرة واحدة ·· فمن الحمق أن نتركها تفلت ·

ووجدته على حق ·· فالفتاة ناضجة شكلا وجسدا ·· وفرص الزواج الصالحة ليست متعددة فى أيامنا هذه ، فاذا كان الخطيب ، كما وصف ، فمن الحمق رفضه ·· ان الفتاة الحمقاء المدللة لا تريد الزواج لأنها لا تعرف ما هو الزواج ·· ولأنها تظن أنها يجب أن تظل هكذا ترتع فى كنف أبيها ·

وعجبت من ظروف الحياة ·· كيف يبتلى بعض الناس بالنعم ·· لأن حالة هذه البنت يعتبرها بعض الناس نعمة ، فأنا أعرف أناسا يشكون من فجور بنات هذا الجيل ومن أن البنت أضحت وهى فى

الثانية عشرة تفهم كل شيء ، وانها عندما تبلغ الرابعة عشرة يحطم قلبها ما لا يقل عن عشر حوادث عشق ، وفي السادسة عشرة تشكو من انها اضحت عانسا بائرة ٠

ولم أملك سوى الضحك وقلت لصاحبي وزوجته :

ـ يبدو لي أن الذنب ذنبكما ٠٠ فقد كان يجب عليكما ان تتفاهما مع البنت وتصادقاها ، وألا تتركاها هكذا تمضي جل وقتها مع الأطفال الصغار وإلا تعاملاها كما تعاملان اختها الصغرى ٠٠ على أية حال لست أرى المسألة مستعصية الحل ويخيل الى أن حلها يحتـاج الى بعض الصبر في محاولة اقناعها وافهامها ٠

ـ لقد حاولت عبثا أنا وأمها ٠٠ ان عقلها زاخر بالتفاهات ، انه لم ينضج بعد ، بل هو ما زال عقل طفلة غريرة ٠

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ هذا كلام لا أفهمه ٠٠ يجب أن تبذلا بعض الجهد ٠

وأجابت الأم يائسة :

ـ لقد بذلنا كل ما في وسعنا لاقناعها بقبول الخطيب ولكن جهدنا ذهب سدى ٠

ـ الجهد لا يكون باقناعها بقبول هذا الخطيب بالذات بل يجب أن يبذل الجهد لافهامها طبيعة الحياة ٠٠ ولتوسيع مداركها وايقاظ وعيها ونقل تفـكيرها من تفكير طفلة الى تفكير امرأة يجب أن تخرج من تلك الركود الذهني ٠

ـ لا فائدة ٠٠ انها مصرة على أن تكون طفلة ٠٠ ومصرة على رفض الخطيب ٠

ولكني مع ذلك لم اقتنع بأن حالة الفتاة مستعصية الحل ، بل بدا لي انه يمكن علاج الفتاة بشيء من الأناة والصراحة ، وخيل الى انى أستطيع أن أمد يد المساعدة وانى قد أكون اقدر منهما على تنمية تفكير الطفلة لا سيما وأنه لا يقوم بيني وبينها ذلك الحجاب الثقيل من احترام الأبوين وخشيتهما ٠

اجل ·· اننى اقدر بلا شك على التفاهم معها ·· فانا مخلوق مرح مهزار لا أعتبر كثيرا قيم الأعمار والمراكز ·· بل كثيرا ما اندمج فى اللعب مع الأطفال حتى كأنى واحد منهم ·

والطفلة نفسها لا تنفك تدعونى الى اللعب معهم مناديتى مازحة ·· بـ « أنكل جو » سائلة اياى أن أصنع لهم طيارة أو زمارة ·

ولم أكن ارفض اللعب أو أخجل منه ·· رغم ما كنت أتهم به من الهيافة ·· بل كنت أقضى الساعات لاهيا عابثا قافزا واثبا ·· مستمعا الى شكواهم ·· قاضيا فى نزاعهم ·· وهم يمسكون بخناقى ويتواثبون على كتفى ·

كنت أنا الذى أهبط الى مستوى الطفولة التى ترتع فيه البنتية ·· وكانت هى التى تشدنى اليها ·· من أجل الضحك والمرح واللعب ·

أفلا أستطيع — وأنا « أنكل جو » صديقها الحميم — أن أرفعها مرة الى مستوى الفهم والادراك والتقدير ·· من أجل مستقبلها ؟

دار كل هذا فى رأسى خلال فترة الصمت التى أعقبت النقاش ·· ويبدو أن المناقشة بين ثلاثتنا أنا والأب والأم · كانت لا بد مؤدية الى نفس التفكير فى الرؤوس الثلاثة ·· وان ما دار فى ذهنى قد انعكست منه صورة فى كل من ذهنيهما فقد سمعت الأم تضحك ضحكة خافتة ثم تقول :

— لم لا تجرب أنت ؟ فقد تستطيع أن تنجح فيما فشلنا فيه ·· حاول أن تخرجها عن ذلك اللعب الصبيانى ·· فقد تفهمك وتستمع اليك · الست صديقها الحميم « انكل جو » ؟

وضحكت زوجتى وقالت مازحة :

— لا تنتظرى منه خيرا ·· انه لا يصلح فى أعمال الجد قط ·· أنه لا يجيد سوى اللعب بالنحلة والطيارة ·· انه هو نفسه فى حاجة الى من يرفعه من مستوى الطفولة ·

وصمت برهة ·· وحلا لى أن أقبل التحدى ·· وان أريهم أنى على مرجى وميلى الى المزاح ·· قدير على الجد حلال لمستعصى الأمور ، وانى سآتى لهما بما لا يستطيعانه ·

ورأيت الثلاثة يرمقوننى وعلى شفاههم ابتسامة انتظار فقلت متحديا :

ـ دعوها لى ·· انى كفيل بها ·· لن تعود من المصيف الا وقد قبلت الخطيب ·· من يراهن ؟

وأجاب الأب ضاحكا :

ـ لا داعى للرهان ·· فانك لا شك خاسره ·· يكفى أنك ستضيع وقتك عبثا ·

ـ بل انى أقبل الرهان أيا كان ·· خمسة جنيهات لخمسة · ما رأيكم ؟

ـ حسنا ·· قبلت ·

وغادرنا الشرفة ضاحكين ·· وفى اليوم التالى بدأت العمل ·· لكسب الرهان ولكسب مستقبل الصبية وانقاذها من تفاهة تفكيرها ·

وكنت أظن المسألة لن تستغرق منى أكثر من جلسة أو جلستين ·· أفهم الصبية خلالها أنها قد كبرت وأنها لا بد أن تتحمل مسئوليتها فى الحياة كزوجة وأم ·· وأشرح لها متعة الحياة التى توشك ان تقبل عليها ·· وكيف سيكون لها بيتها وكيانها فى المستقبل · وكيف ستكون ربة أسرة وسيدة بيت ·

لقد أخذت أحضر كل هذا فى ذهنى كما يعد المحاضر محاضرته ·· وكنت أعتمد كثيرا على لباقة لسانى وقوة اقناعى وعلى ثقة الفتاة بى وعلى التفاهم الذى نشأ بيننا فى اللعب والمرح ·

وصحبتها فى نزهة قصيرة فى الجبل فى الصباح المبكر ·· زاعما لها انى أريد أن أريها عشا للعصافير مليئا بالبيض الملون ·

وقالت لى وهى تشير باصبعها مهددة :

ـ اياك أن تكون كاذبا ·· انى لم أر من قبــل بيضــا ملونا للعصافير ؟

ـ سترين بعينك أنى لا أكذب ·

ـ لم نأخذ معنا سامية ونادية وجمال ·

ـ انهم ما زالوا نائمين ولو تأخرنا لفقس البيض ·

وسرت واياها فى الطريق الجبلى الضيق ، نهز ايدينا المتشابكة ونصفر فى مرح وجذل حتى بلغنا صخرة صغيرة أشبه بالمقعد تشرف على سفح الجبل المكسو بأشجار الصنوبر فطلبت منها الجلوس ·

ولكنها سألتنى مستفسرة :

ـ أين العش ؟

وأخذت أتلفت حولى متصنعا الدهش قائلا :

ـ عجبا ·· كان هنا بالأمس يا ليلى ·· أين ذهب ؟ لقد كان فوق هذه الشجرة بالذات · لا بد أن تكون الأم قد نقلته ·· على أية حال دعينا نستريح ·· ونتحدث برهة ·

وجلست بجوارى ونسـيم الصــبح الرطب يهب على وجهينا والشمس ترسل مقدماتهــا الأرجوانية من وراء الجبــل · وبدأت المحاضرة ·· محاضرة أقسم لكم أنهــا تعتبر من روائع الكلم ·· وأحسست خلالها باعجاب بنفسى وبقوة منطقى وذلاقة لســانى ·· وتوقعت فى نهايتها ·· أو حتى قبل نهايتها أن تتركنى الصبية وتعود راجعة الى أبويها ·· ثائرة عليهما لتركها حتى الآن بلا زواج ·

ولكن المحاضرة بلغت نهايتها والفتاة ما زالت جالسة بجوارى وقد أخذت تتسلى بقضم أظافرها ·

وقلت لها ناهرا :

ـ ليلى ·· كفى عن قضم أظافرك ·· لقد كبرت ·· وكان مفروضا

عليك أن تتركى أناملك تنمو وتطليها بالمانكير بدل أن تقضميها حتى يبدو لحم أظافرك ٠

ثم صمت برهة تمالكت فيها نفسى وقلت مترفقا :

ــ ما رأيك يا ليلى بعد كل ما قلت ٠٠ ألا توافقين على الخطبة ؟

ــ لا ٠٠ لا يا أنكل جو ٠٠ لا أريد الزواج ٠

ــ لم يا ليلى يا حبيبتى ؟ ٠ انك لم تعودى بعد طفلة ؟

ــ ولماذا أتزوج وأنا أشعر بمنتهى السعادة فى حياتى هذه ٠٠ ان لدى ما أريد ٠٠ وأبى وأمى لا يبخلان على بشىء وهما يذهبان بى الى السينما وقتما أشاء ، وما من شىء أطلبه الا ويحضرانه لى ٠٠ ألا تعلم أنهما سيبتاعان لى دراجة ٠٠ بمجرد عودتى الى مصر ؟

سأتعلم ركوبها ٠٠ وسأعلم نادية ٠٠ وان لم تتعلم سأحملها ورائى على المقعد الخلفى وسأزوركم بها ٠٠ هل تجيد ركوب الدراجات يا أنكل جو ؟

وأجبتها بزفرة حارة ٠٠ ونفخة مليئة باليأس ونظرت اليها شزرا وأنا أضغط على أسنانى ٠

وسألتنى فى سذاجة وبراءة :

ــ ماذا أغضبك يا أنكل جو ؟! ألا تعرف ركوب الدراجة ؟٠٠ انى أستطيع أن أعلمك بعد أن أتعلم أنا ٠

ولم أجد هنا فائدة من المناقشة ٠

ماذا أقول لهذه الحمقاء الصغيرة ٠٠ وقد انتهت بها محاضرتى القيمة عن طبيعة أوضاع الحياة وفوائد الزوجية ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ الخ ٠٠ الى أن تعرض على أن تعلمنى ركوب الدراجات !

وسحبتها من يدها وعدنا أدراجنا ٠٠ وهى ما زالت تحدثنى عن الدراجة التى سيحضرها لها أبوها ٠

وخجلت بالطبع أن أعرض عليهم نتيجة محاولتى ·· وصممت على ألا أيأس ·· وعلى أن أحاول مرة ثانية ·

أجل ·· لقد اقتنعت بخطأ الطريقة التى اتبعتها ، وعزمت على أن أحاول بطريقة أخرى ·· كان من الحمق أن أحاول النجاح بسرعة فأتبع الطريق المباشر القصير ·· بدل أن أتبع الطريق الطويل غير المباشر ·· الذى يحتاج الى أناة وجد وروية ·· والذى لا تبدو نتيجته جلية واضحة ·· ولكنها ستأتى مع الزمن ·

لقد فشلت طريقة الاقناع بالمحاضرات ·· فعلى أن اتبع طريقة الاقناع العملى ·

وفى اليوم التالى صممت على أن أسألها الخروج معى فى نزهة مبكرة ·· ولم أكن فى حاجة الى التعلل بعش العصافير والبيض الملون ·· فقد عرضت الخروج من تلقاء نفسها قائلة انها استمتعت بنزهة الأمس ·

وخرجنا فى الفجر نضرب وحدنا فى الجبل ·· ولم أحاول قط أن أحاضرها ·· أو أن أرفعها الى مستوى التفكير والتبصر ، بل رحت أعدو وراءها وتعدو ورائى ، وعدنا فى النهاية وبى عدد من الخدوش والجروح التى أصابتنى نتيجة تسلقى احدى الأشجار لأحضر لها بعض الزهور ·

واستمرت نزهاتنا يوما بعد يوم ·· وفى كل يوم يقل العدو واللعب ·· ويزداد الهدوء والتأمل والتمعن ·

لم أحاول أن أفعل شيئا ·· ولكن النسائم الرطبة الخفاقة والشمس المتثائبة وراء الأفق ·· والورق الهتوف والبلابل الصادحة، والأوراق الخضر تترنح وتتمايل على سفح الجبل قد فعلت شيئا كثيرا ·· أكثر مما أتوقع ·· ومما أحتمل ·

لقد بدأت الصبية الطائشة التافهة ·· ذات الطيارة ، والزمارة

والدراجة ٠٠ تتمهل فى سيرها وتكف عن عدوها ٠ وأضحت تتوقف بين آونة وأخرى لتشير باصبعها الى هنا أو هناك ، ثم تهتف فى لهجة لينة وصوت حنون :

ــ أترى هذا الغصن المحمل بالزهر ؟! انظر كيف يحركه النسيم ٠٠ ان القليل من الناس هم الذين يفطنون الى جمال الطبيعة ٠

ــ نعم ٠

ــ أرأيت أجمل من شروق الشمس يا أنكل جو ؟

أجل ٠٠ لقد تبدل حديثها الى « أنكل جو » من حديث عن العرائس والدراجات الى حديث ملىء باستيعاب جمال الكون وفتنة الطبيعة ٠٠ وخفتت صرخاتها الجوفاء الضاحكة فأضحت همسات حنونة أشبه بالزقزقات ٠٠ و « أنكل جو » بين هدوئها وتأملها وحديثها وهمسها ، يرقب التطور حائرا وجلا ٠

لقد كنت أستطيع أن أجزم من ذلك الهدوء أنى قد كسبت الرهان ٠٠ أو على الأقل أوشك أن أكسبه ٠

ان الفتاة قد تبدلت وخرجت عن سربال الطفـولة ٠٠ وكسرت البيضة التى كانت تضمها وتحجب عنها كل ما يتفتح عليه ذهن الفتاة وقلبها فى هذه السن وكشف لها ما يجب أن تهفو اليه روحها وتصبو اليه نفسها ٠

كان هدوء الفتاة وسكينة قلبها ٠٠ بشائر انتصارى ٠

ولكنى كنت أوجس خيفة ٠٠ خشية أن يكون هدوءا ينبىء عن عاصفة أو سكينة تستبق ثورة جامحة لا يعلم الا الله مداها ٠٠

كنت أخشى الفتاة ٠

وشر من هذا ٠٠ كنت أخشى نفسى ٠

كنت أخشى على كلينا من الآخر ٠

وبينت الأيام أنى كنت من خشيتى على حق ٠

أذاك أمر غريب ؟

قد يبدو كذلك ·· ولكن لو حلل كلانا تحليلا صادقا لبدا الأمر غير عجيب ·

ولو كنت أكثر حكمة وتبصرا لما زججت بنفسى فى هذا المأزق ·· ولما نسيت نفسى فحملتها ما لا تحتمل من الثقة ·

كيف كانت ليلى الصغيرة ؟ وكيف كنت ؟

كيف كانت التجربة ·· وكيف واجهتها ؟

وسط خمائل الجبل ، وبين الورق الهاتفة ·· نسير متجاورين فى كل فجر ·· فاذا ما جلسنا شردت الصغيرة فى الأفق البعيد ومدت يدها فى صمت تتلمس يدى ·· فتعانق أصابعها أصابعى وتلاصق كتفها كتفى ·· وتظل شاردة لا تنبس ببنت شفة ·

فاذا ما هممت بسحب يدى ضغطت عليهـا مستبقية ·· واذا هممت بالنهوض نظرت الى نظرة استعطاف ثم سألتنى :

ـ أتضايقت سريعا ؟ أما نجلس هنيهة أخرى ؟ ان الوقت ما زال مبكرا ؟

وكنت لا أملك الا الجلوس واستبقاء يدها فى يدى ·

وهكذا كنا نجلس ·· صمت فى صمت ·· ولا شيء سوى الصمت المطبق والأصابع المتعانقة والأكف الضاغطة · وكنت أشعر انه يجب أن أوقف هذه النزعات ·· وأن أكف عن هذه الخلوات رغم انه لم يشبها قط شيء ظاهر ·

أجل ·· كنت فى باطنى أحس أن ما لا يجب أن يحدث يوشك أن يحدث ان لم يكن حادثا بالفعل ·· ان الظاهر صـامت برىء ·· ولكن الباطن صاخب والحشا تضج ·

كان يجب أن أوقف كل هذا ·· وأن أضع له حدا ·· ولكنى كنت أفزع من أن أخدش مشاعرها ·· او أسبب لها ضيقا او حزنا ·

وكنت أنا نفسى ـ رغم كل مقاومة ـ قريرا بالجلسة الصامتة ·· والأكف المتشابكة ·

لقد انتزعتنى الصغيرة ·· من كبرى وتجاربى وعقلى ·· كما انتزعتها من طفولتها وتفاهتها ·· ولعبها ·· لقد انتزع كلانا صاحبه مما كان فيه من الركود ·· والتقينا فى منتصف الطريق ·· بمشاعر مستعرة ·· وأحاسيس متأججة ·

ولقد كبحت جماح نفسى جيدا ·· وبذلت المستحيل حتى لا أنسى نفسى وموضعى ·· ولا أندفع وراء القلب الأحمق الخفاق ·· فأقدم على أجن حب يمكن أن يقدم عليه انسان ·· حب لا يمكن بأية حال أن ينتهى الى نتيجة معقولة ·

ولا أنكر أنى أفلحت ·· الى أقصى حد ·· وأنى لم اكن أفعل سوى الجلوس بجوارها والشرود وترك يدها فى كفى مسترقا البصر من آن لآخر الى جانب وجهها الحلو ، وأنفها الدقيق وخصلة شعرها المهتزة على جبينها ثم أحول بصرى سريعا عندما أشعر أنها قد أحست بنظراتى وبدأت تحول الى عينيهـا ·· كنت أتجنب دائمـا التقاء العيون ·

لقد أفلحت فى هذا ·· حتى جلسنا ذات فجر كما تعودنا أن نجلس وأحسست بيدها تزداد ضغطا على يدى كأنها كانت تقول لى شيئا ·· كنت أفهمه جيدا ·

وأخذت أرقب جانب وجهها والخصلة المهتزة على جبينهـا ·· حتى وجدتها تلتفت الى ·· ورأيتهـا تضغط بأسنانها على شـفتها السفلى كأنها تقاوم فى باطنها ألما شديدا ·

وعندما التقت أبصارنا اندفعت فى بكاء شديد ·

ولم أملك الا أن أضمها الى وأخفى وجههـا فى صدرى وأخفى وجهى فى شعرها ·

وظللنا على ذلك حتى كفت عن البكاء ثم عدنا أدراجنا وكان من الجنون أن نستمر على ذلك ·· فما أظن نفسينا كانتا تستطيعان أن تحتملا اكثر ·

وكان على بعد ذلك أن أفعل شيئا ·· فانتهزت فرصة ذهابها هى وعائلتها الى دعوة فى صوفر ، وحزمت أمتعتى وعدت وعائلتى الى القاهرة فى أول طائرة ·

لقد عدت وأنا اشبه بالهارب المذعور ·· الذى أطلق للريح ساقيه ·· فرارا من خطر داهم ·

أترى كنت فى فرارى جبانا ؟

كنته أو لم اكنه ، لقد كان هذا هو الطريق الوحيد لوضع نهاية للأمر ·

لقد كان على أن أحتمل ألم الفرقة مهما كان ·· من اجلها ·· ومن أجل نفسى ·

لقد تركتها بلا وداع ·· فشر ما فى الفراق وداعه ·

لقد غادرتها بلا انذار ·· الا من رسالة قصيرة ·· ووضعتها تحت حجر حيث تعودنا أن نجلس وحيث كنت واثقا أنها وحدها ·· التى تستطيع أن تعثر عليها ·

وما زلت اذكر ما كتبته وأحفظه عن ظهر قلب :

« اشعر يا ليلى اننا قد وصلنا الى حيث يجب أن نفترق ، ان لى سبيلى ولك سبيلك ·

ولقد اشركتنا الأقدار الهوجاء برهة فى سبيل واحد وكان ذلك منها تجربة قاسية مريرة ·

فقد كان من المستحيل أن نستمر فى السبيل المشترك او يجنب أحدنا الآخر الى سبيله ·

ولذلك فقد آثرت أن أتركك ملتاعا محزونا ·· بلا عزاء عن فرقتك

سوى تلك المتعة التى جنيناها من لحظات سيرنا فى الطريق المشترك ٠

لقد بدأت المسألة بيننا بسبب رهان ٠٠ فلقد راهنت اباك انى سأخرجك من طفولتك وسأجعلك تقبلين خطيبك ، وارجو ألا يخذلك قولى ٠٠ وأن يعزيك عنه ٠٠ اننى ـ بكل حمق ـ خرجت من كبرى وحدت عن غرضى وأحببتك فعلا ٠

أرجو أن تساعدينى على كسب الرهان ٠٠ وأن تقبلى خطيبك ٠٠ وتسلكى سبيلك الخاص بك ٠٠ فان هذا سيكون لى خير عزاء ٠

ليسر كل منا فى سبيله ، ولنجعل من حبنا ذكرى حلوة تعيننا على تحمل مشاق الحياة ٠٠ وتسعدنا عندما تطبق علينا همومنا ٠

اجل لنجعل حبنا بارقة نلتفت اليها كلما خضنا ظلمات الحياة ٠

أليس هذا خيرا من أن نجعله نارا تحرق قلوبنا وتدمر كياننا ؟

مزقى رسالتى هذه ، حتى لا يبقى بيننا الا ما يستتر فى القلوب ٠

واذا كنت تنوين أن تحققى رجائى ٠٠ فخذى الرهان من أبيك واجعليه هديتى فى عرسك »

ولم ألقها بعد ذلك الا وفى يدها طفلها ، وأقبلت على تشد على يدى فى شوق وتقول ضاحكة :

ـ كيف حالك « يا انكل جو » ؟ هذا هو ابنى « جو » الصغير ٠

لم لم تسأل عنى ؟! لقد جعلتك تكسب الرهان ولكنى لم أمزق الرسالة ٠٠ لأنى جعلتها كما قلت فيها:

« ذكرى حلوة ٠٠ تعيننا على تحمل مشاق الحياة ٠٠ وتسعدنا عندما تطبق علينا الهموم » ٠

رجل مخدوع

آه لو علم وقتذاك مدى حقارتهن وتفاهتهن ‥ وآه لو يعلم ان هذا الجنس ليس اكثر من وسيلة للتسلية والترفيه ٠

آه لو علم هذا ‥ لوفر على نفسه الألم واللوعة ‥

ولكنه كان معذورا ‥ فقد كان الحب الأول ‥ وكانت الصدمة الأولى ٠

سقى الله الحب ورعاه ‥ فقد أضحى له فى نفسى منزلتان : الأولى كشىء ممتع يملؤنى بالسعادة عندما يغمرنى كما يغمر كل انسان ‥ والثانية كمورد رزق أعيش منه ككاتب قصة أحترف الكتابة ٠

أجل ‥ انى أفيد من الحب مرتين : مرة عند التمتع به كحقيقة واقعة ‥ ومرة عند الكتابة عنه كذكريات عابرة ٠ ففى الأولى افيد متعة الحب ، وفى الثانية أفيد لذة الكسب ٠

انى لأعترف أننى كثيرا ما أصاب بتبلد ذهنى أشعر معه برغبة عن الكتابة ‥ وأحس بالقلم فى يدى ثقيلا مكسالا ‥ بطىء الحركة

كأنه السلحفاة .. واقفا فى مكانه وقفة شتربة .. وتمر بى الأيام وأنا مضرب عن الكتابة وقلمى معرض عنى حتى يقترب موعد القصة .. ولا تصبح المسألة مسألة « كيف » بل مسألة واجب .. لا بد من تأديته .

ويضيق بى الحال .. فألجأ الى الحب وذكرياته أستثيرها فى نفسى .. وأوقظها من هجعتها .. وأستاقها كى تستحث القلم المضرب المعرض .. فاذا بها تفعـــل بى وبه فعـل السحر .. واذا بالقلم المتخاذل قد اندفع على الورق .. كأنه فرس رهان .

وقبيـل أن أبدأ قصتى هـــذه .. أحسست بذهنى ذلك التبلد والركود .. وأمسكت ببضعة صور لفتاة أعطانيها صاحب فنان علها تصلح لبعض القصص .. وأخذت أقلب فيها البصر .. ولم أكن أعرف من تكون الفتاة .. فما رأيتها من قبل .. وكل ما أعرفه عنها أنها حسناء حاول أن يتخذ منها المصور نموذجا لفنه .. ورأيتنى أتوقف عند احدى الصور لأمعن البصر فيها قليلا .. ورأيت الذهن يصحو من غفوته ثم يعود بى القهقرى الى زمن ولى .. حتى يقف أمام صورة من صور الماضى .. ما أشبهها بهذه الصورة .. الملقاة ـ أو المستلقية ـ أمامى .. لا فرق بين احداهما والأخرى .. الا أن الأولى من دم ولحم ، والثانية لا تعـدو ظلالا على ورق .. الأولى صادقتها منذ خمسة عشر عاما فكانت لى ـ فى فترة ما ـ كل شىء .. كانت الروح ، وكانت الحياة .. والثانية أقلبها الآن بين يدى .. فلا أجد فيها أكثر من صورة ، أتصيد بها ذكريات عابرة .. ذكريات .. هى كما قال الأستاذ الشناوى (صاحب الخطايا) : « شيبتنى .. شيبت حتى صبايا » .

★ ★ ★

تبدأ القصة فى المدرســة الثانوية الملكية (الخديوى اسماعيل

الآن) ·· منذ خمسة عشر عاما أى فى حوالى عام ١٩٣٢ وقد جلس الصبية فى أحد فصول السنة الثالثة ·· بينما أوشك الجرس أن يؤذن بانتهاء الحصة الأخيرة ·· وبدا الصبية قلقين متلهفين على الانطلاق من الحجرة كأنهم أسرى طال بهم الشوق الى أوطانهم ، وقد جهزوا كتبهم ووضعوها بجوارهم على المقاعد ، حتى لا يضيعوا لحظة واحدة فى الفصل بعد أن يقرع الجرس ·

قرع الجرس ·· وهبت المدرسة كلها فى هرج وطنين كأنها خلية نحل ·· وتكأكأ الصبية على الباب يتسابقون الى الخروج كأن بداخل المدرسة من يسوقهم بالسياط أو كأنما ينتظرهم خارجها كنز أو وليمة ·· فلا يكادون ينفذون من البـاب حتى يتفرقوا شـيعا وأفواجا ، فالبعض الى ميدان لاظوغلى ، والبعض الى شارع خيرت ، والبعض الى ميدان السيدة أو المنيرة ·

ودلفت ثلة صغيرة فى شارع خلف المدرسة فى تلك الجهة المعروفة باسم « جنينة رشيد » ، وسار الصبى بينهم وقد انزلق طربوشه على مؤخرة رأسه وأخذ يطوح بحقيبته فى يده ويقذف بقدمه كل حصاة أو حجر يصادفه ، حتى بدا طرف حذائه من فرط اصطدامه بالحجارة حائل اللون أجرب ·

وتوقف الصبية أمام سور حديدى لدار فخمة ، وأخذوا يطلون من خلال السور على الحديقة الغناء ·· فقـد أثار اعجابهم بعض الورود المتفتحة اليانعة ، وأخذوا يتآمرون على قطفها ، وهموا فعلا بالتسلل الى الداخل ، ولكنهم لمحوا الحارس قد أقبل ، فلم يسعهم الا ان يولوا فرارا قانعين من الغنيمة بالاياب ·

ولكن الصبى لم يقنع بالاياب ، فقد كان بنفسه لهفة الى الغنيمة ، اذ وجد فى الورود خير وسيلة يتقرب بها الى تلك الصبية الفاتنة التى قطنت حديثا فى الدور الأسفل ، وعاد الصبى الى داره وقد

أخذ يحكم وضع الخطط فى رأسه ، وكان أول ما أنبأ به أهله هو أنه سيعود الى المدرسة لأن لديهم حفلة فى هذا المساء ، ولم يكد الظلام يخيم حتى انطلق من الدار الى حيث الغنيمة ·

واقترب من السور فلمح الحارس قابعا فى مكانه ، فاستمر فى سيره حتى وصل الى حجر قبالة الدار فجلس عليه يرقب غفلة من الحارس ، ولم يطل به الانتظار فقد أبصره يغادر مكانه ·

ووجد الصبى الفرصة قد سنحت أخيرا ، فقفز من مكانه ودلف من الباب مسترقا الخطا ، وأخذ يتسلل فى الحديقة حتى وصل الى الورود وكان القمر قد غمر المكان بضوئه ، فلم يجد صعوبة فى العثور عليها ، وأخذ يقطفها الواحدة تلو الأخرى ، حتى أحس فجأة بحركة بجواره فأصابه فزع شديد وتلفت حوله الى مصدر الصوت ، فتصبب العرق باردا من جبينه ، وأحس بارتباك شديد ·

ويحه ! لقد كان هناك من يرقبه منذ أن بدأ سرقته ، لقد أبصر بوجه ساحر افتر عن ابتسامة عذبة فاتنة ، وبعينين ضاحكتين قد أخذتا ترقبانه فى لين ودعة ، وقد اضطجعت صاحبتها فوق الحشائش الخضراء متخذة من ذراعيها العاريتين متكأ تسند اليه رأسها وشعرها الفاحم ·

واضطرب الصبى ، ولكن ابتسامة الفتاة أعادت الى نفسه الطمأنينة ، فأبعد عن نفسه فكرة الفرار ، اذ كره أن يبدو أمامها بمظهر اللص الرعديد ، وأخذ يجهد رأسه فى عذر ينتحله أمامها كى يبرر به موقفه ·

وأشار لها بتحية خفيفة من يده ، فنهضت متكئة على احدى يديها وردت عليه التحية ، وتكلم هو بصوت هادىء متزن فرجاها أن تنبىء البواب بأنه قد قطف الورود التى طلبها عبد الرحيم بك ، وأنه سيحملها اليه بنفسه ، ثم أعطاها ظهره وانساب الى الباب فى هدوء

وسكون ·· ولم يكد يبتعد قليلا ويختفى عن ناظرها حتى أطلق ساقيه للريح ·

وبات ليلته يحلم بذلك الوجه الباسم الذى اضطجع على أرض الحديقة والذى ضبطته صاحبته متلبسا بجريمة السرقة · واستيقظ فى الصباح فوجد الوجه ما زال يشغله فى يقظته كما شغله فى نومه ·· وذهب الى المدرسة ·· وتتابعت عليه الدروس ·· وهو لا يفهم كلمة مما يقال ·· فقد كان ذهنه شاردا فى عالم آخر ·· وكانت عيناه لا تبصران سوى صورة الفتاة راقدة تبتسم له ·

وانتهت الدراسة فتعمد أن يتأخر عن رفاقه ·· حتى يعود وحيدا فقد كانت بنفسه لهفة الى أن يراها مرة أخرى ولكنه لم يلمح لها شبحا فى الحديقة أو فى الدار ·

ومرت الأيام وصورة الفتاة قد شغلته عن كل شىء ·· حتى عن تقديم الورود الى صاحبته التى قطفها من أجلها ·· وحاول جهده أن يبصرها مرة ثانية ·· ولكن الفشل كان نصيبه حتى بات يخشى أن تكون الفتاة طيفا صورته له الأوهام فى تلك الليلة ·

وأخيرا ·· رآها ·· على غير ترقب منه أو انتظار ·· وأحس بارتباك شديد ·· وحاول أن يستعيد لنفسه تلك الأحاديث التى كان يعدها ليلقيها اليها فى أول لقاء ·· ولكن كل شىء كان قد تطاير من رأسه ·· وأحس بأنفاسه تتلاحق وخيلّ اليه أنه قد بات يسمع دقات قلبه ·

وأخذت الفتاة فى الاقتراب منه وقد تأبطت ذراع صديقة لها ·· وحاول هو أن يقول شيئا ·· ولكنه لم يتذكر أى شىء ·· لقد كان عاجزا عن التفكير ·· عاجزا عن الكلام ·· حتى لكأنه أمام لجنة امتحان الشفوى ·

وأبصرته الفتاة فبدا عليها أنها قد تذكرته ، فقد نظرت اليه فى

شيء من الدهشة ، ثم وجهت الحـديث الى صاحبتها ضاحكة ·· واستطاع أن يسمع من حديثها كلمتين هما : « حرامى الورد » ·

اذا لقد اكتشفت الفتاة حقيقته !

ولم يشعر بخجل من تلك الكلمة ·· بل على النقيض ، لقد أحس بفرحة شديدة ·· فقد تبين أنها على الأقل ما زالت تتذكره وكأن لسان حاله يكاد يقول :

لئن ساءنى أن نلتنى بمذمة فقد سرنى أنى خطرت ببالك

لقد عاد الفتى الى داره وهو يحس بسعادة لا توصف · لقد عرفته الفتاة ، وكان ذلك أكثر مما يتوقع ويتمنى ·

ولاحظ أهل الفتى ورفاقه ذلك التبدل الذى طرأ عليه وذلك التحول العجيب الذى بدا فى مسلكه وتصرفاته ·· فقد انقلب فجأة من صبى عابث الى فتى رزين متئد ·· وكان طربوشه وحذاؤه أول ما تناوله ذلك التبدل والتغيير ·· أما الطربوش فقد أقلع عن الانزلاق على مؤخرة رأسه ·· وبدأ يستقر فى ميل شديد على أحد حاجبيه ·· وأما الحذاء فقد كف تماما عن قذف الحصى والحجارة وعاد اليه لونه ولمعانه وأحس بأن صاحبه قد أضحى « بنى آدم » ، وليس عفريتا من الجن أو شيطانا من الشياطين ·

لقد ذاق الصبى ـ أو على الأصح الفتى ـ أول رشفة من رشفات الحب ·· وهبت عليه أول نسمة من نسماته ·· ولا أظن أن هناك إمرأ الا ويذكر نفسه فى تلك المرحلة التى أخذ يجتازها الفتى ·· وأعنى بها مرحلة الحب الأول ، بينما لم يزل بعد فى طور النضج ·· حين ينظر اليه الناس فى سخرية واستهزاء اذ لا يرون فيه غير غر حدث ·· وطفل ساذج ·· ويبادلهم هو نفس النظرة ·· فهو يرى فيهم حمقى لا يستطيعون أن يفهموه ·· لأن مداركهم أعجز من أن تصل الى ذلك الشعور الذى يحس به ، وأبصارهم أقصر من أن تبصر

ذلك العالم المضيء الذي يحيط به ، وهكذا يرى الانسان نفسه بمعزل عن الناس ·· هو لا يفهمهم وهم لا يفهمونه ·· هو في واديه يهيم وهم في واديهم يهيمون ·

ومن العبث أن أحاول وصف أحوال الفتى في حبه الأول ، أو تحليل مشاعره واحساساته ·· أو أن أسرد محاولاته مع الفتاة لكي يفوز منها بكلمة أو بنظرة ، لا سيما أن الفتى ـ رغم تلك الجسارة والجرأة التي كان يظهر بها بين رفاقه ـ كان في حبه من نوع انطوائي ، يحيط نفسه بسياج منيع من الخجل والحياء ·

ولكنني أستطيع أن أعطي صورة واضحة للقارئ اذا ما قلت أن الفتى قد مرت به سنتان منذ أن بدأ حبه للفتاة ، وهو يحوم حول الدار ، علّه يلمحها في نافذة أو في شرفة أو يجدها خارجة فيتبعها من بعد كالكلب الأمين ، ثم يعود الى داره ، فينهمك في قراءة قصص الغرام كمجدولين وأمثالها · ثم يأخذ في كتابة رسائل الحب التي يسكب فيها عصارة ذهنه وقلبه ، وهو حائر الفكر لا يستطيع أن يعرف موقفه عند صاحبته ، ولا يدرى ان كانت تحبه أو لا تحبه ·· لأن أحوالها معه غير مفهومة ، وتصرفاتها معه متناقضة متباينة ، فهي قلب حول ·· تبتسم له مرة وتكفهر أحيانا ·· وهو لا يستطيع أن يسألها هل تحبه ، أو هل تفهم معنى الحب ، لأنه لا يدري كيف السبيل اليها ، فلا يجد خيرا من الورق ملجأ ينفس عنه كربته ·· ويقذف فيه بما يجيش به فؤاده ·

واليكم بعض ما كان يكتبه الفتى وهو في غمرة حبه ·· ففي كلماته خير تصوير لنفسه :

« ليتني أستطيع أن أنفذ الى رأسك أو الى قلبك ·· ليتني أستطيع أن أبدد ظلمات الشك والحيرة التي تكتنفني من كل جانب ·· ليتني

أعرف فقط انك تحبيننى ·· انا لا اريد أكثر من ذلك ·· أريد أن أشعر بلذة اليقين والاستقرار ·· آه لو أعرف أنك تحبيننى !!·

ولكن هل تعرفين أنت ما هو الحب ؟ ! من يدرى ربما كنت لا تعرفينه ·· وربما كنت تحبيننى دون أن تعرفى أن هذا هو الحب ·· دعينى أشرح لك الحب كما أحس به ·· لا كما قرأته أو سمعت عنه ·· وسأشرحه لك فى أبسط الألفاظ وبأقصر الطرق ·

معنى أنى أحبك ·· هو أن رأسى ملىء بك ·· حتى لكأن ذلك الشىء الكامن فيه ليس عقلا كبقية العقول ·· بل هو عقل ممزوج بك ·· لا يستطيع أن يفكر فى غيرك ·· أما عيناى فكأنى بصورتك قد التصقت بهما ·· حتى بت لا أبصر الحياة الا من خلالك ·· أما القلب ·· فأغلب الظن أنك قد امتزجت بالدماء التى تجرى فى أوردته وشرايينه ·· فلو توقفت عن السريان فيه لكف عن نبضه وتعطل عن حركته ·

لا تقولى ان قولى مبالغة عشاق ·· أو مجرد انشاء ·· أو محاولة فى الكتابة والأدب ·· لأن ذلك القول هو حديثى الى نفسى ، وليس أصدق من حديث النفس الى النفس ·

انى لأبصرك فأتمنى الا يتحرك الوقت ، وأتمنى لو أصاب الحياة جمود وركود ، حتى تظلى أمام عينى الى ما لا نهاية ، وقد يزداد بى الطمع فى بعض الأحيان فأتمنى لو استطعت أن أحتوى يدك بين يدى ، وأن أحس برأسك يستند الى صدرى ، ثم نغمض أعيننا عن كل ما فى الحياة ، ونظل كذلك حتى ينتهى العمر ، أو حتى تحين الساعة » ·

هذا بعض ما كان يكتبه الفتى ، مما لو جمع لكان مجلدات ضخمة فى الهوى والهيام ·

وأخيرا وبعد مضى عامين طويلين ، وبعد طول كتابة وصبابة ·· حدثت المعجزة التى كان يتلهف عليها الفتى وتم اللقاء ·

لقد عوض الله انتظاره ، وجزى صبره خيرا ، كل الخير ، ففى ذات مساء رآها فى الحديقة . وكان المكان خاليا الا منه ومنها ، وابتسمت له وأشارت اليه بالدخول ، فتسلل كما تسلل منذ عامين ، لا ليسرق الورود هذه المرة ، وانما ليسرق الحب ·

وغادرها بعد أن أفرغ كل ما فى قلبه ·· وبعد أن سرق كل ما كان يطمع فيه ·· بل أكثر كثيرا ·· لقد سرق منها اعترافا بحبه ·· وسرق قبلة من يدها ·

ومر على الفتى يومان بعد ذلك ·· شرد فيهما عن نفسه من فرط تلك السعادة التى كان يحس بها حتى حدث اللقاء الثانى ·· والأخير !

الأخير لأن الفتى قد حطم فيه صنمه ·· حطمه وبكى ·· لا بدمع عينيه ·· بل بدماء قلبه ، وعصارة روحه النضرة اليانعة ·

لقد لقيها ·· فحطم لقاؤها قلبه ·· وندم على هذا اللقاء كما لم يندم على شىء فى حياته ·· وهو الذى كان لا يتمنى شيئا قدر لقائها ·

لقيها وهو يركب فى عربة صاحب له ثرى مدلل ·· سأله أن يذهب معه للقاء فتاتين تعود أن يقضى معهما ساعات ممتعة · وتمنع الفتى فقد كان يحس أن لصاحبته حقا عليه.وأن فى ذهابه خيانة لعهدها ·· ولكن صاحبه اقنعه أن هذا مجرد عبث لا دخل له فى الحب أو الخيانة ·

وسارت بهما العربة وهو شارد الذهن ، موجس خيفة من أن تراه فتاته فى موقفه الشائن ، حتى أحس بالعربة تقف ، وبالفتاتين تصعدان ·· فاذا احداهما ·· هى صاحبته ·· بدمها ·· ولحمها !

وسارت العربة وجلست فتاته الى جواره ·· ملاصقة له ، ومع ذلك فقد كان يحس أن بينه وبينها ما بين الأرض والسماء ·· أو ما

بين ابليس والرحمة ٠٠ أو كأنه يجلس الى ميت بينه وبينه ما بين الآخرة والأولى ٠

ولم ينبس الفتى ببنت شفة ٠٠ فقد كان يحس بنفسه كأنه شبح بين أطلال ٠٠ أو حطام بين أنقاض ٠٠ ولم تكد تقف فى أول مرور حتى فتح الباب ببطء وتسلل من العربة واختفى بين السابلة ٠

وعاد الى داره ٠٠ وبنفسه ذلك الشعور المرير الذى نحس به عندما نعود الى دورنا وقد وارينا التراب عزيزا لدينا ٠

كم كان جزعه شديدا ٠٠ ولوعته ممضة !

آه لو علم وقتذاك مدى حقارتهن وتفاهتهن ٠٠ وآه لو يعلم ان هذا الجنس ليس أكثر من وسيلة للتسلية والترفيه !

آه لو علم هذا ٠٠ لوفر على نفسه الألم واللوعة ٠

ولكنه كان معذورا ٠٠ فقد كان الحب الأول ، وكانت الصدمة الأولى ٠

رجـــل طيب

لقد وجدت الرجل الطيب الكريم اليائس ... المنهار ، الذى انزلت به الصدمة الكبرى .. ولكنه كان فى حالة لا تنبىء عن طيبته ولا كرمه . لا . ولا كان هناك اثر للصدمة التى انزلتها به .

كانت تشعر بانها تمر بتجربة عسيرة ، وان المشاعر تصطرع فى جوفها وتصطخب ، انها باتت أشبه بريشة فى مهب ريح هوجاء عاصفة عاتية .

ترى كيف هبت عليها الرياح فزلزلت حياتها الهادئة وعصفت بنفسها الراضية القانعة المستقرة ؟ بدأت الريح طيبة حنونا كالنسمة الرقيقة الناعمة لا تنبىء بخطر ولا تنذر بشر .. فأمنت لها واطمأنت اليها ، وتركت نفسها تستمتع بها فى دعة واستسلام ، حتى بدأت الريح تشتد وتعصف وتجرفها فى سبيلها فاذا بها شاردة تائهة ضالة هائمة .

كانت أول تجــربة تمر بهــا ، تجــربة شــاقة مرهقة ،

وهى التى تعودت الهدوء والاستقرار منذ نعومة أظفارها ، ولم تكن تعرف عن الحياة الا أنها موكب يسير وصورة تتكرر ؟!

انها تذكر حياتها مع أبويها عندما كانوا يقطنون فى دارهم بمصر الجديدة ، وعندما كانوا يتمتعون بحياة هادئة هانئة لا يشوب صفوها كدر ، وكان أفق حياتها لا يكاد يتعدى البيت والمدرسة ، ومن آن لآخر سهرة فى احـدى دور السينما أو زيارة لأحـد الأقارب أو الأصدقاء برفقة أبويها ٠

كانت سعيدة بغرفتها الصغيرة التى لا يشاركها فيها أحد ، وكانت دائمة الترتيب لدولابها الصـغير الذى حـوى بين جدرانه جميع ممتلكاتها من دمى قديمة وملابس وكتب ، سعيدة بكل شيء ٠

وكانت سـعيدة بأبويهـا الرقيقين الطيبين الحنـونين اللذين لا يرفضان لها طلبا ولا يخيبان لها رجاء ٠ سـعيدة بالدار النظيفة الأنيقة والحديقة المورقة المزدهرة ٠٠ سعيدة بمدرستها التى لا تكاد تبعد عن الدار أكثر من مسـيرة بضـع دقائق ٠ سعيدة برفيقاتها ومدرساتها فى المدرسة ٠

كانت بطبيعة خلقها ونشأتها هادئة الطبع شديدة القناعة ، فلم تحاول قط أن تتطلع الى أكثر مما وهبه الله لها ، وأراحها هذا الهدوء وتلك القناعة وشغلتها توافه الحياة ومتعاتها البسيطة السهلة عن التطلع الى مطالب المشاعر المرهفة ورغبات النفس الحساسة ٠

علمتها أمها أن على المرأة ألا تحب الا بعـد أن تتزوج ، فكفت نفسها مئونة التشوق والتشوف ، وكفت نفسها شر الرجات القلبية والزلازل العاطفية ، وباتت تنتظر فى هدوء وفى غير تعجل ولا قلق ، وتنعم بحياتها المدرسية والمنزلية حتى يحين اليوم الموعود ، ويتقدم اليها الزوج الذى يجب أن تحبه ٠

ولم يتأخر اليوم كثيرا ، ولم يطل بها الانتظار حتى تقدم الزوج ٠

انها تذكره جيدا ·· فى يوم من أيام الخريف اللطيفة الجو ، ولم يكن قد مضى سوى بضعة أيام على بداية العام الدراسى ، وقد عادت من المدرسة وقذفت بحقيبتها على أحد المقاعد ثم استلقت بملابسها على الفراش فى تكاسل واسترخاء ، عندما أقبلت أمها تستنهضها وتسألها أن ترتدى ثيابها بسرعة استعدادا لاستقبال بعض الضيوف ·

وبدلت ملابسها وأخذت تعد حجرة الصالون لاستقبال الضيوف فوضعت الزهور فى الزهريات وأعدت المرطبات . ولم تكد تنتهى من اعدادها حتى أقبل الزائرون وكانوا عائلة صديقة ، بصحبتهم رجل غريب ·

وكان الرجل الغريب هو طالب الزواج ، أو الزوج المنتظر ·

أجل ·· لقد أدركت حقيقته بوحى احساسها !

ان أمها لم تفصح عن شىء ولكن الحاحها فى آن تعتنى بهندامها وفى أن ترتدى حليها كان الحاحا يبعث على الشك ·

والرجل الغريب نفسه ، ونظراته المسترقة من آن لآخر جعلها تجزم فى نفسها أن فى الأمر شيئا ·

ومضت بضعة أيام ·· ثم وضحت الحقيقة ، وسألتها أمها عن رأيها فيه ، لأنه ق تقدم لخطبتها ·

وعرضت أمامها مؤهلاته ، فكانت جمة ·

كان مدرسا فى الجامعة يحمل شهادة الدكتوراة ، وكان شابا لا يتجاوز الخامسة والثلاثين ذو مستقبل باهر ، كريم المنبت ، طيب العائلة ، له من الأملاك ــ غير مرتبه ــ ما يجعله فى بسطة من العيش·

وهكذا لم تكن به اية علة ولا هنة من حيث الموضوع بل كان يعتبر زوجا نموذجيا ·

أما من حيث الشكل ، فقد كان عاديا ·

لم يكن قبيحا ولا مشوها ، ولم تكن العين تستطيع أن تلمح به

شيئا مميزا ، جميلا كان أم قبيحا ، بل كان ممثلا للشكل العادى الذى يمكن أن تبصره فى آلاف الموظفين والمدرسين والكتبة والتجار ، والمصريين عامة !

كان أميل الى القصر والامتلاء ، ولكنه لم يكن قصرا معيبا ولا امتلاء مشوها ، وكان يضع على عينيه منظارا ، ولم يكن هذا بالشيء الغريب ، فثلاثة أرباع من فى مثل سنه ومركزه يضعون على أعينهم منظارا ٠

كان الرجل مقبولا شكلا وموضوعا ٠

ولم يكن هناك مبرر لأن تقول ـ حتى فيما بينها وبين نفسها ـ لا ٠

حقيقة أنه لم يكن هناك أية صلة ولا شبه بينه وبين ذلك المخلوق الكائن فى أفق أحلامها ٠ ذلك المخلوق الذى تجسده لها قصص الهوى وأحلام الدجى ٠

وحقيقة أنه لم يكن جميلا ، فارع الطول ، ممشوق القوام كأبطال الشاشة البيضاء ٠٠

ولكنها لم تكن من الغباء بحيث تتصور أن هذا الشيء كائن فى الحقائق ، وأن عليها أن تنتظر حتى يقبل ذلك المخلوق من أفق الأحلام !

كانت قناعتها ، وهدوء طبعها ، وحسن تربيتها ، تجعلها تؤمن بالواقع ، وتدرك بسهولة أن هذا الرجل المتقدم اليها يمكن أن يكون زوجا صالحا محترما ، وأنها يجب أن تقبله حامدة قريرة ، وأن تشكر الله على نعمائه وفضله ٠

وقالت نعم ٠٠ لأنها لم تستطع أن تقول : لا ، فما كانت تجد لها مبررا ، وما كانت من الجنون بحيث تقول انها كانت تفضل أن يكون أطول قامة ، وأوسم وجها ، وأرشق قدا ٠

وخيرا فعلت •• فلقد اثبتت لها الأيام التى مرت بعد ذلك أن القدر قد اكرمها ، وأنها لم تخطىء قط بقبول الرجل زوجا •

كان رجلا رقيقا مهذبا ، رضى الخلق ، هادىء الطبع ، ولم يكن هذا الخلق الرضى بالشىء المفتعل المتصنع الذى يتكلفه الرجال فى أيام الخطبة ، والذى سرعان ما يتبدد عندما يصبحون أزواجا ، فينقلب هدوءهم غضبا ، ورقتهم فظاظة ولينهم غلظة •

وبدأ حياتهما الزوجية ، وانتقلت الى بيتها بالدقى مكرمة معززة ، وأقبل عليها زوجها اقبال محب عطوف ، وأحاطها بعنايته المفرطة •• مدركا أنها شىء ثمين يستحق الرعاية والعناية •

ولقد كانت كذلك فعلا ، اذ هيأت له زوجة مثالية •• ولم يكن جمالها وثقافتها ليمنعاها من أن تكون سيدة بيت ومن أن تقوم بالطهى والنظافة وأن ترعى شئون زوجها تماما كما كانت تفعل أمها ببيتها وبأبيها •

وهكذا سارت بها الحياة الهوينا ، جاعلة من كليهما •• هى وزوجها •• نموذجا لزوجين سعيدين راضيين قانعين •

حتى بدأت الريح تهب •

وكان مصدرها ذلك النادى الرياضى الذى اشتركا فيه •

كانا سعيدين بالاشتراك به فى أول الأمر ، فقد كان خير مكان يمكن أن يقضيا فيه وقتهما برفقة ثلة من زملائه وزوجاتهم •

ولم يكن النادى يبعد عن البيت كثيرا ، وكانت حديقته المتسعة المترامية الأطراف وشرفته المشمسة تعوضهما خيرا عن شقتهما البحرية التى لا تدخلها الشمس •

ولقد بدأ ذهابهما الى النادى فى أول اشتراكهما معا ، فقد كان يصطحبها برفقته بعد الظهر فتجلس هى للتسلى بالحديث مع بعض الصديقات أو بعمل التريكو ان لم تلق احداهن ، ويأخذ هو فى لعب

التنس ، وبعد الانتهاء من اللعب يجلسان معا لتناول الشاى وقضاء السهرة فى السمر مع الأصدقاء أو يذهبان الى احدى دور السينما ٠

هكذا كان برنامجهما اليومي ٠٠ حتى أنشأ لنفسه مكتبا للعمل الحر ، فشغل وقته معظم أيام الأسبوع بعد الظهر ٠

وكان يكره أن يتركها وحيدة طول اليوم ، فوجد أن خير طريقة لتسليتها هى اصطحابها الى النادى وتركها فيه حتى يعود اليها بعد الانتهاء من العمل ٠

وبدأت أيام الشـــتاء الأولى تمر دافئـــة ممتعة ، وبدأت هى معرفتها به ٠

كان زميلا لزوجها ، سبق أن جلس فى شلتهما بضع مرات من قبل ، ولكن معرفتها به كانت معرفة سطحية غير وثيقة ٠

ولقيها وحدها فى أول يوم فحياها فى أدب واستأذنها فى الجلوس فأذنت له ٠٠ ثم سألها لم لا تتسلى بلعب التنس ، فأنبأته أنها لم تلعبه من قبل ٠٠ فقال لها انها يجب أن تحاول لعبه وعرض عليها أن يقوم بتدريبها ٠

وكانت تعلم أنه أحد أبطال التنس المعروفين ٠٠ ولكنها اعتذرت فقد خشيت أن يضايق هذا زوجها ٠

وعندما عاد زوجها عنـد انتهائه من العمـل ٠٠ جلس الثلاثة يتناولون الشاى ٠٠ وقال صاحبنا مازحا :

ـ يا محمود بك ٠٠ لقد عرضت على ليلى هانم أن أعلمها التنس مجانا ٠٠ فرفضت ٠

وأجاب محمود بك :

ـ انها مخلوقة مكسالة ٠٠ من الذى يرفض أن يعلمه على عزت بطل التنس ؟ لا ٠٠ لا ٠٠ يجب أن تتعلمى يا ليلى بدل الجلوس هكذا

تشتغلين بالتريكو كالعجائز ٠٠ انى أريدك أن تكونى شريكة لى عندما تبدأ المباريات الزوجية ٠

وفى اليوم التالى بدأت التدريب ٠

وبدأت تستمتع بالريح الطيبة الحنون تهب كالانفاس الناعمة الرقيقة ٠٠ لا تنبىء بخطر ولا تنذر بشر ٠

كانت تستمتع باللعب وبالصحبة ، وبالشمس الدافئة ، وباليوم الجميل ، ولم تحاول أن تمنع نفسها من الاستمتاع ٠٠ فما كانت تدرك أن وراء الريح الهادئة زوبعة عاصفة عاتية ، وان وراء الاستمتاع اندفاعا واقتلاعا ٠

ان شر ما فى هذه التجارب أنها تبدأ هادئة رقيقة ، وانها تتسلل إلى النفس تسلل النوم الى الجفون ، لذيذة ممتعة ، غلابة مسيطرة ٠٠ لا يملك لها الانسان دفعا ، ولا لسلطانها ردا ٠

كانت تستمتع باللعب وبالصحبة ، سليمة النية ، طيبة القصد ، ولم يخطر ببالها أنها كانت تندفع الى مغامرة ، وتساق الى شر تجربة يمكن أن تساق اليها امرأة متزوجة ٠

ولقد قلت انها متينة الخلق ، حسنة التربية ، شديدة القناعة ، وأنها ٠٠ وأنها ٠٠ من كل محمود الصفات التى يمكن أن تخطر على بال ٠

ولكن هل تستطيع كل هذه الصفات الطيبة أن تصمد أمام التجربة اذا ما استطار شرها ، واستشرى خطرها ، واستفحل داؤها ؟

لا تقولوا ٠٠ نعم ٠

لا تكونوا حمقى ٠٠ فتلقوا القول على عواهنه ٠

متزوجة أو غير متزوجة ، طيبة أم فاسدة ، سعيدة فى بيتها أم غير سعيدة ، ان هذه التجارب اذا ما وقعت أودت بالطيب والخبيث

والشقى والسعيد ، وجرفت فى طريقها كل شىء ، غير عابئة بتقاليد أو أصول أو أوضاع ٠

ان التجربة تبدأ سهلة هينة لا تنبىء بشر حتى يحاول الانسان تجنب شرها ، ولا تنذر بخطر حتى يحاول أن ينجو من خطرها ، فاذا ماحل الشر ووقع الخطر ٠٠ جرف أمامه كل مقاومة وسحق كل محاولة للنجاة ٠

لقد أمتعتها اللعبة والصحبة ، لعبة التنس ، وصحبة المدرب ، وزاد الاستمتاع حتى خرجت المسألة عن مجرد الاستمتاع ، وأصبح الأمر شيئا حيويا ضروريا ، وانقلبت لعبة التنس الى اللعبة الشائكة الهوجاء المسماة بالحب ، ولم يعد المدرب شريك اللعبة فحسب ، بل شريك الروح وأنس الحياة ٠

وبدأت تحس بقسوة التجربة وبخطورة الأمر وحيويته ٠ وبأن الريح الهادئة قد اشتدت وباتت رياحا هوجا لا تبقى ولا تذر !٠

وبدأ النضال الخفي بين الضمير والرغبة ٠٠ بين القلب والعقل ٠٠ وزاد النضال قسوة وعنفا طبيعتها الرزينة وعقلها الهادىء المتزن ٠٠ فقد كان يمكن للتجربة أن تمر بسهولة لو انها جبلت على غير ذلك الخلق الطيب والتربية القويمة ٠٠ ولو انها كانت مستهترة مخادعة نزقة طائشة ٠

وحاولت المقاومة فى الظاهر وفى الباطن ، أما محاولات الظاهر فلم تجد نفعا ٠٠ فقد حاولت سدى أن تقلع عن الذهاب الى النادى ، وحاولت التعلل أمام زوجها بشتى الأعذار ولكنه كان يصر على أن تذهب ٠

أما محاولات الباطن ٠٠ فقد ذهبت كلها أدراج الرياح ٠

كان القلب جامحا بعد أن طال به السكون والركود ٠٠ وكان

عسيرا عليه أن يرى صنو النفس الذى طالت وقفته فى أفق الأحلام فيعرض عنه وقد اقبل عليه وأضحى حقيقة واقعة ٠

اجل ٠٠ لقد كانت الكارثة فى أن فتى الأحلام قد أقبل متاخرا بعد أن ارتبطت بسواه وشدت الى غيره ٠

واخيرا صممت على أن تضع حدا لذلك النضال ، وأن تتخذ اجراءا حاسما ٠

انها تحترم زوجها وتجله ، وتربأ بنفسها أن تلوث عرضه وهى تكره الخيانة والخديعة ، ولذلك فيجب أن تختار بين أحدهما ٠٠ اما مالك الجسد ، واما مالك القلب ٠٠ اما الزوج ، واما الحبيب ٠

وغادرت الدار ذات صباح بعد أن انبأت زوجها انها ستقضى اليوم بطوله عند أمها لأن بها وعكة ٠٠ وذهبت الى صاحبها لتنبئه علام استقر رأيها وايهما ستختار ، هو أو زوجها ٠

والتقت به فى داره حيث كان ينتظرها فى لهفة ٠٠ فأنبأته أنها قد اختارته هو ، وانها ستنبىء زوجها بصراحة بجلية الأمر وتسأله الطلاق ٠٠ وغادرته عائدة الى دارها ٠٠ وطال بها الانتظار دون أن يعود زوجها ، فدفعها القلق الى الذهاب الى مكتبه ، وكانت تعلم اية صدمة قاسية توشك أن توقعها به ، ولكنها كانت تعلم أن عملها هذا خير بكثير من الخديعة والخيانة ٠

ووصلت الى المكتب ودقت الجرس ، وبعد لحظة كان زوجها يقفه أمامها فى دهش وذهول ٠

كانت أول مرة تزوره فى مكتبه ، وخشى أن يكون قد أصاب أمها مكروه ٠٠ فسألها منزعجا :

ـ أاصاب والدتك شيء ؟ ٠

ـ لا ٠

ـ اذن ما بالك مضطربة هكذا ؟ ٠

ـ أريد أن أفضى اليك بشىء ٠

ـ الآن !٠

ـ اجل الآن ٠

ـ الا يمكن تاجيله حتى نعود الى البيت ؟

ـ من الأفضل أن ننهيه الآن ٠

ـ أهو من الأهمية بمكان ؟

ـ نعم ٠

وقادها الى حجرة المكتب واغلق الباب وما زالت علائم الدهشة مرتسمة على وجهه ، ولم تكد تستقر على مقعدها حتى صاح متسائلا:

ـ حدثينى عما بك ٠

وبصوت خافت حدثته ، عما جاءت لأجله ٠٠ والقت اليه بغبيئة نفسها ٠

وجلس ينصت اليها فى ذهول ، وقد اتكأ على المكتب مطرقا برأسه فى يأس شديد ٠

وأخيرا كفت عن الكلام وساد الحجرة صمت عميق ٠

وبعد ،رهة قال بصوت خافت متهدج :

ـ انت مجنونة ٠٠ طائشة ٠

ـ لست مجنونة ولا طائشة ، ولكنى لا أريد أن اخونك او اخدعك لأنى اجلك واحترمك ٠

ـ ألا تمنحين نفسك فرصة للتفكير ؟

ـ لقد فكرت كثيرا ٠٠ انى لم افعل ما يجعلنى اخجل حتى الآن ٠ ولا أريد أن أفعله أبدا ٠

وهز الرجل رأسه ببطء ، وقال وهو يحاول التمالك والتماسك :

ـ لك ما تشائين ٠

ونهضت من مقعدها وغادرت الحجرة ٠

وفى الطريق بدأ الضمير يثقل ضرباته ، وبدأت تحس ثقل الصدمة التى أنزلتها بالرجل الذى بذل كل ما يملك لاسعادها ٠٠ والذى وهبها البيت الهادىء والحياة المستقرة ٠

وتصورت حاله الذى تركته عليها وانهياره ويأسه ، فازداد بها الندم ، وتمنت لو تستطيع أن تخفف بعض عبئه ، واحست بانها كان يجب عليها أن تضحى من اجله ، وأن تقاوم رغباتها ونزعاتها ٠

وبلا وعى ولا ارادة وجدت نفسها تعود القهقرى ٠٠ لتسأل زوجها المغفرة وترجوه العفو ، وتنبئه أنها قد صممت على أن تقهر قلبها وتطلب منه أن يساعدها على الخلاص من حبها ٠

وكانت واثقة أنه سيقدر وسيغفر ٠٠ فهو طيب كريم ٠

ومرة ثانية وقفت بباب المكتب ، ووجدت انها لم تغلقه وراءها جيدها فقد انفتح امام دفعتها ٠٠ ودخلت المكتب ولم تكد تخطو بضع خطوات حتى وقفت مشدوهة ذاهلة ٠

لقد وجدت الرجل الطيب الكريم ٠٠ اليائس المنهار ٠٠ الذى أنزلت به الصدمة الكبرى ٠

ولكنه كان فى حالة لا تنبىء عن طيبتة ولا كرمه ٠٠ ولا كان يائسا ولا منهارا ٠

لا ٠٠ ولا كان هناك اى اثر للصدمة التى انزلتها به ٠

كل ما وجدته قد زاد عليه هو امرأة بين احضانه ٠

حقا ٠٠ انها كانت مجنونة ٠

لقد ادلت اليــه باعترافها أول مرة والمــرأة مختبئة فى احدى الحجرات ٠ لقد كان مكتبه مأوى لرفيقته ٠

لعنة الله عليها ٠

كان خيرا لها أن تفعل كما يفعل ٠٠ فلا تفضح نفسها ٠٠ بل تبدو امامه كما يبدو امامها طيبا كريما ٠

رجـــل آثـــم

الحمد لله على انه لا يعرف أوصاف الآثم الأول ..
لقد كان لا بد من ذهابه .. والا .. من يدرى فقد تتنبئه
عجوز النحس بها وتكون الطامة الكبرى .

بدأ القطار سيره ، وأخذت ألوح لبضعة الأصدقاء الذين حضروا لتوديعى حتى اختفوا عن ناظرى وسط الزحام . وغادرت النافذة عائدا الى مقعدى .

وكان أول ما فعلت هو أن ألقيت نظـرة عجلى على رفاقى فى السفر . وبؤت من النظرة بخيبة رجاء . فما رأيت بين الوجـوه المرافقة التى ساكره على صحبتها ثمانى ساعات متوالية وجها يغرى بالنظر ، ويزيل وحشة السفر ، ويقصر طول الرحلة . ومع ذلك فلم أشعر بكثير أسف ، أولا لأنى قد تعودت على هـذه الخيبة فى كل سفر . وثانيا لأن الديوان لم يكن مزدحما بل كل من به لا يزيدون على أربعة : أنا وثلاثة آخرون .. وهكذا اطمأننت الى سفرة مريحة أستطيع خلالها أن أمد ساقى على المقعد المواجه وأن أستغرق فى نوم عميق .

وبدأت أتصفح الجرائد والمجلات التى وضعتها بجوارى حتى أحسست بالخمول يدب فى جسدى فألقيتها جانبا ثم أسندت رأسى فى تكاسل الى الوراء وأغمضت عينى فى شبه اغفاءة ٠

وأخذت انصت لطرقات القطار المنتظمة التى يحدثها فى أثناء سيره ٠ وشرد بى الذهن فى توافه الحياة ، فاستعرضت ما فعلت فى يومى وما سأفعله فى الغد ، ثم اختلطت الأفكار فى رأسى حتى انعدمت قدرتى على التفكير ورحت فى سبات عميق ٠

لم تكن الساعة تزيد على الثامنة ٠ فالقطار قد بدأ تحركه فى السابعة والنصف ٠ ولا أظن تشاغلى بالنظر الى رفاقى فى الديوان أو انهماكى فى قراءة الصحيفة ، قد استغرق أكثر من نصف ساعة ، ومع ذلك فقد هاجمنى النعاس سريعا من فرط ما أجهدت جسدى خلال اليوم ٠ ولأنى لم أجد حولى ما يستحق اليقظة ٠

واذا نام المرء واستيقظ فجاة فانه لا يكاد يشعر انه قد نام ولا يستطيع أن يقدر طول الوقت الذى استغرقه فى النوم بل يخيل اليه انه لم ينم ٠ وهكذا أحسست عند ما استيقظت فجاة على صوت طلق نارى يدوى فى اذنى ٠ وهببت من مقعدى فزعا مرتاعا لأجد الرجل الجالس بجوارى يفحص مسدسا فى يده ثم يضعه فى جيبه باطمئنان وارتياح ٠ وأجد أحد الرجلين الجالسين فى مواجهتى مستغرقا فى سباته ، أما الرجل الآخر فلم يكن باقل منى دهشة ٠ اذ رأيته يحملق فى الرجل صاحب المسدس ، وقد بدت عليه سيماء من أوقظ فجاة فزعا مرتاعا ٠

ونظرت الى الساعة فاذا بها الحادية عشرة ٠٠ وأدركت ببساطة أنى قد قضيت فى سباتى ما لا يقل عن ثلاث ساعات وكان القطار

معمعنا فى سيره دون أن يبدو من النافذة أى اثر لأضواء أو علامات مميزة تدل على المكان الذى نمر به ، بل بدا لى كأن القطار يطوى أكداسا من الظلمات ·

وخيم على ثلاثتنا صمت لم يكن يشوبه سوى طرقات عجلات القطار المتتالية المنتظمة كأنها دقات الساعة ·· وكان صمتنا مشوبا بقلق وتساؤل وتوتر فى الأعصاب · وأخذت أقلب البصر بين الركاب فرأيت الرجل الجالس قبالتى يعود الى تراخيه ويمدد ساقيه ويلقى برأسه الى الوراء ثم يغمض عينيه دون أن ينبس ببنت شفة وكأنما الأمر لا يعنيه فى شىء أو كأنه مفروض على ركاب القطار أن يتسلوا باطلاق النار من مسدساتهم ·

ولم أستطع أنا بالطبع أن أفعل كما فعل الآخرون ، فأتمطى فى مقعدى بهدوء وأعود الى سباتى ·

من يدرينى أن صاحب المسدس ليس مجنونا ؟ وأن الطلقة الآتية ستستقر فى جوفى بدلا من أن تنطلق طائشة من النافذة ؟

··· لا ·· يجب أن أكون حريصـــا وألا أترك الرجـــل يعبث بمسدسه ، أو على الأقل أطمئن نفسى بالاستفسار عن سر هذه الطلقة التى أطلقها ·

وكأنما أحس الرجل بقلقى وبأن عينى تحملقان فيه وتطلبان منه تفسيرا · فقد التفت الى وهز رأسه مشيرا بالتحية ثم قال وهو يضع يده على جيبه :

ــ مسدس جيد ·

ولم أعرف كيف أجيبه · فأنا لم أفحص المسدس حتى أعرف اذا كان جيدا أم لا · ولا أعرف كيف ينوى استعماله · ولا اذا كان من صالحى أن يكون جيدا أم غير جيد · ولكنى تجنبا لكل ما يثير الرجل لم أستطع الا أن أوافقه بهزة من رأسى وأنا أقول :

ـ يبدو كذلك ٠

ـ لقد اشتريته منذ مدة قصيرة لغرض خاص ٠ انى لم أمسك في خياتي مسدسا قبل الآن ، ولا كنت أعرف كيفية استعماله ، بل كنت أخشى الاقتراب منه ٠ ولكن الظروف أجبرتني على ابتياعه حتى أنهي به مهمتي ٠

ـ تنهي به مهمتك ؟

ـ ساقتلهما به ٠ لا أظن المهمة ستكون شاقة ٠٠ حقيقة انى لا أجيد النشان ، ولكن المسألة لن تحتاج الى ذلك ٠ فلن أحاول اصابة الهدف من بعد ٠ لن يكون بيننا أكثر مما بيني وبينك ٠ هكذا ٠

ورأيت الرجل يخرج مسدسه من جيبه ثم يضع فوهته بمنتهى البساطة ملاصقة لمعدتي ٠٠ ويواصل حديثه :

ـ أجل ٠٠ لن تكون المسافة بيننا أبعد من هذا ٠ هل تظنني أخطىء ؟

واحسست برجفة وانا أبصر فوهة المسدس تلامس جسدي ، وخشيت ان أتيت بحركة بها شيء من العنف ، أو صحت بالرجل ناهرا اياه ، أن تخرج الطلقة من المسدس وأردى صريعا ٠٠ ففضلت أن آخذ الرجل باللين وقلت له مؤكدا :

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ انك لن تخطئه أبدا ٠ فقط أرجوك أن تبعد فوهة المسدس عن معدتي لأنها تسبب لي مغصا ٠

وصاح الرجل مقهقها :

ـ لا تخف ٠ ان سقاطة الأمان في موضعها ٠ أنظر ٠ مهما ضغطت على الزناد فلن ينطلق ٠

وضغط الرجل على الزناد وهو ما زال مصوبا الفوهة الى معدتي، ولم تكن هناك فائدة من الصياح أو الهرب ، وكل ما كنت أستطيع

فعله هو الاستبسلام . ان الرجل لا شك مجنون ولن تجدى معه سوى السياسة .

وحمدت الله أن جعل الزناد لا ينطلق فعلا .. وحمدته كذلك أن جعل الرجل يعيد مسدسه أخيرا الى جيبه .

وتنفست الصعداء ، وقلت للرجل :

ـ امصمم أنت على قتلهما ؟

ـ أجل . كما قتلا ابنتى .

ـ قتلا ابنتك أنت ؟

ـ أجل ابنتى أنا . لقد تآمرا على قتلها ، وراحت المسكينة ضحية نذالتهما وجبنهما .

وبدت على وجه الرجل علامات الحقد والغضب .. ورأيت مقلتيه تغرورقان بالدموع ، وبدا لى كأنما هو جاد فيما يقول .

وسواء كان جادا أم لم يكن ، فما كنت أملك الا موافقته فمددت يدى واخذت أربت على كتفه وقلت له فى عطف ظاهر :

ـ هدىء نفسك وحاول أن تنام واسترح قليلا .

ـ انام ! لقد مضى على عشرة أيام وأنا لا أعرف طعم النوم .. منذ أن واريتها الثرى لم يغمض لى جفن ولم يهدأ لى بال .

ـ ولكن أواثق أنت من أنهما قد قتلاها ..؟

ـ اتظنني كنت أصر على قتلهما اذا لم أكن واثقا ؟

ـ ولكن إذا كان الأمر كذلك فلم لا تبلغ أمرهما للقضاء وتتركه يقتص لك دون أن تعرض نفسك لعقوبة القتل ؟

ـ القضاء ؟ لا .. لا .. انا لست أبله . ان ابلاغ القضاء لن يعنى سوى الفضيحة لى ولها . أما هما فلن يستطيع القضاء أن يثبت عليهما شيئا ، وان أثبت فلن يكون لجريمتهما عقاب .

ـ اذا ثبت انهما قتلاها فلن يكون لجريمتهما عقاب ! ؟

ـ أجل ·· أمام القانون · لا عقاب لهما ·

ـ لست أفهمك جيدا ·

ـ لكي تفهمني جيدا يجب أن تفهم الحادثة جيدا ·

كنت ذات يوم أجلس في داري·· وأنا أقطن فيها مع ابنتي وخادم عجوز تدعى أم احمد · ترعى أمورنا منذ أن توفيت زوجتي ، وكنت أعلم أن ابنتي خرجت مع الخادمة منذ الصباح لقضاء بعض الحاجات ، وكنت أتوقع أن تعود الى الدار قبيل الغداء ، ولكن موعد الغداء حل دون أن تعود · وزاد بي القلق عندما انقضى اليوم وهي ما زالت غائبة · حتى دقت الساعة السادسة فاذا بي أسمع وقع اقدام أم أحمد وحدها وهي تصعد الدرج بطيئة متثاقلة ، واقبلت عليها أسألها في لهفة عن ابنتي فرأيت وجهها شاحبا وعينيها محمرتين وأنبأتني في صوت متهدج أنها قد أتت لأخذي اليها ··

وكانت المرأة في حالة اعياء شديد ، ولم أستطع أن أستفسر منها عن حقيقة ما حدث ، ولكني توقعت أن يكون قد حدث لابنتي حادث تصادم وأنهم حملوها الى أحد المستشفيات ·

وانطلقت مع المرأة في احدى عربات الأجرة وسألتها عن اسم المستشفى الذي وضعوها فيه ، فأنبأتني أنها ستقودني الى هناك ·

وهكذا أخذت المرأة تقود السائق وتعرّج به يمنة ويسرة حتى وجدت نفسي في شارع محمد على قرب القلعة · ثم عرجت بنا العربة في أحد المنعطفات وظلت تتجول بين الأزقة والحارات وأنا حائر دهش ، حتى وقفت بنا أمام بيت حقير تفوح منه رائحة العفونة وتتراكم على بابه أكوام القمامات · وقالت المرأة :

ـ انها هنا · تعال ·

ولم أملك الا الانصياع ··· فدخلت أتعثر وراءها ، أخوض وسط القمامات ، وأتخبط في الدرج الحجري المتآكل ·

ودفعت المرأة بابا خشبيا ودلفنا الى صالة رطبة معتمة لا يبدو فيها اثر لأثاث ·· ثم عبرناها الى حجرة في الناحية المقابلة للسلم ·· وهناك ابصرت ما صرعني وسلبني رشدي وأفقدني صوابي ·

وجدت ابنتي مسجاة على فراش قذر وقد أغمضت عيناها وشحب وجهها وبجوارها كومة من الملاءات مغرقة بالدماء والفراش نفسه قد تناثرت فيه بقع الدم الأحمر ··

كل شيء في الحجرة كان ملوثا بالدماء ·

وأحسست كأني أوشـــك أن أهوى الى الأرض ·· وصرخت كالمجنون :

ــ ما هذا ؟ وما الذي أتى بها الى هنا ؟

وانبرت لي عجـوز شمطاء من اقصى الحجرة تسعى كالحيـة الرقطاء وانبأتني انها هي التي أتت بقدميهـا ·· وأنهـا هي التي سألتها الاجهاض ·· وأنها غير مسئولة عن شيء ·· فهذا قضاء الله · ولا راد لقضائه ·

اجهاض ؟ ! كيف ؟!·

ونظرت الى أم احمد متسائلا وأنا أكاد أجن ·· فهمست المرأة في صوت خافت :

ــ لا داعي لكل هذا الآن · ليس هذا وقته · الأفضل أن نحملها الى البيت ·· ربنا أمر بالستر ·

ولم يكن أمامي سوى الرضوخ ، فلا أقل من الستر على البنية العزيزة !·

ولففناها في ملاءة نظيفة وحملناها الى التاكسي وأوصلناها الى البيت ·

وفي البيت فاضت روحها ·

وهكذا تمت الوفاة بلا فضيحة وأنعم الله علينا بالستر فى اللحظة الأخيرة .

وهارينا الجثة التراب .. وتلقيت التعزيات وأنا بادى الهدوء ، ظاهر الصبر . ثم عدت أخيرا الى البيت وقلبى يغلى بالثورة ويصطخب بالحقد .

كيف حدث ما حدث ؟ من المسئول ؟

وامسكت بأم احمد أستجوبها واضيق عليها الخناق . حتى بدأت تفضى الى بالحقيقة .. وأنبأتنى أنها لاحظت علامات الهم والقلق بادية على الفتاة ، وأنها أقبلت عليها ذات يوم فأنبأتها أنهـا تشعر بغثيان وميل الى القىء ، وفزعت المرأة . فقد أدركت أن ما بالفتاة علامات حمل ، وكانت تحبها كابنتها . فحاولت أن تستدرجها لتعلم منها الحقيقة الواقعة . ولكن الفتـاة رفضت وقالت أن أمرها لو افتضح فستلجأ الى الانتحار .

ولم يكن هناك بد من انزال الحمل ، وأخذت المرأة والفتاة يتدبران الأمر معا فأنبأتها الفتاة أنها تعرف طبيب ولادة كان دائما يحاول مغازلتها وهى تمعن فى صده ، وهى لا تشك فى أنها لو ذهبت اليـه فسينقذها مما بها ويتستر عليها .

وفعلا ذهبت الفتاة والمرأة الى الطبيب فى بيته مبالغة فى التستر . والتقت الفتاة بالطبيب ، فأدهشه أن تحضر اليه فى داره وهى التى طالما أعرضت عنه وصدته .

وكان من العسـير عليهـا ، وهى المتكبرة المعتزة بنفسها ، أن تعترف بزلتها لهذا الذى طالما احتقرته وترفعت عنه ، وأن تسـأله المعونة والانقاذ .

وجلست فى كبرياء وأنفة تنبئه أنها تحس بغثيان وميل الى القىء ، ودهش الرجل من قولها واستطاع بنظرة فاحصة أن يفهم فيم مجيئها

له وأن يدرك مدى حاجتها اليه ·· فصمم على اذلالها وعزم على أن يأخذ الثمن ·

وبمنتهى البرود قال لها :

ـ هذه أعراض حمل ؟

ـ أجل ·

ـ اذن فانت حامل ؟

ـ أجل ·

وكنت تصدينني وتدعين الشرف والكبرياء والعفة !

ـ وما زلت ، بالنسبة لك ·

ـ اذن لم اتيت الى ؟

ـ لتجرى لى العملية ·

ـ عملية الاجهاض ؟

ـ أجل ·

ـ ولكنها عملية يحرمها القانون · اتعرفين ؟ ·

ـ لا داعى لهذا اللف والدوران ·· أتريد ان تجريها أم لا ؟

ـ تماما كالشحاذ الذى يقول « حسنة وأنا سيدك » ·· انى على استعداد لأن أهبك حسنة على أن اكون أنا سيدك وعلى أن ارغم أنفك الأشم ·

ـ سأدفع لك ثمن العملية ·

ـ أريد الثمن الذى أحدده أنا ·

ـ ماذا تعنى ؟

ـ لا أظنك تبخلين على منقذك من مصابك بما منحتيه للذى وهبك المصاب · أم تراني طلبت شيئا كثيرا ! ان الجزاء من جنس العمل ، ولا أظننا سنحتاج الى اجراء عملية أخرى ·

وكان هذا منتهى الاذلال · ولم تستطع الفتاة أن تحتمل أقوال

النذل ، فرفعت كفها وهوت عليه بصفعة شديد ثم غادرت الدار ·

ولم يكن هناك وسيلة بعد هذا سـوى الالتجاء الى القابلة التى تعرفها أم أحمد ، وهناك كانت الخاتمة ·

وصمت الرجل برهة ، ثم عاد يتحسس المسدس فى جيبه وأردف قائلا :

ــ ولقد صممت على أن أنتقم ولا أستريح حتى اقتلهمـا : الآثم الأول والآثم الثانى ·

أما الأول فانى لم أعرف عنه شيئا بعد ، ولكن أغلب الظن أن المرأة العجوز تعرفه ولكنها تصر على انكارها معرفته ، وانى أعتقد أننى ببعض الضغط أستطيع أن أعرفه منها ·

ــ والثانى ؟

ــ الطبيب النذل المجرم ·· الذى لولاه لما ذهبت الى القابلة ولما سفك دمها فى الأزقة المنتنة العفنة ·· ؟

ــ هل عرفته ·· ؟

ــ أجل · لقد وصفته لى العجوز جيدا حتى انطبعت صورته فى ذهنى ، وحتى بت أستطيع تمييزه بين آلاف الوجوه · سالتقى به عاجلا أو آجلا · وسأضع فوهة المسدس على جسده · هكذا · ثم أطلق · لا تخش شيئا لقد قلت لك ان سقاطة الأمان فى محلها ·

وعاد الرجل يضع فوهة المسدس على معدتى · ورغم أنه أخبرنى أن سقاطة الأمان فى محلهـا فلم أستطع أن أمنع رجفـة سرت فى جسدى ·

لقد باتت حياتى معلقة بسقاطة الأمان ·

ان الرجل مجنون ما فى ذلك شك · وأغلب الظن أن قصته كلهـا من بنات الأوهام ·

واستطرد الرجل قائلا :

ـ انى أعرف أوصافه جيدا · انه متوسط القامة ·

ورأيت نفسى دون أن أدرى أحدق فى المرآة المواجهة ·· خشية أن تنطبق أوصاف الرجل على فتكون الكارثة ·

وعاد الرجل يتمم أوصافه قائلا :

ـ متوسط القامة ·· أحمر الشعر · بوجهه كثير من النمش ، وبصدغه الأيمن أثر جرح طويل ·

وحمدت الله انى لم أجد بشعرى حمـرة ولا بوجهى نمشا ولا بصدغى أثر جرح · ولكنى لدهشتى الشديدة وجدت الوجه الموصوف لا يبعد كثيرا عن وجهى الذى ابصره فى المرآة ·

أجل · لقد كان هو نفسه أحد الرجلين الجالسين فى مواجهتنا · ورأيت جفنيه يرتجفان · ولم أشك فى أنه كان يسمع كل ما دار بيننا من حديث · وفتح عينيه فالتقتا بعينى الرجل صاحب المسدس وران الصمت لبضع لحظات · وتوقعت أن ينطلق المسدس · وأخذت أنتظر الدوى · ولكن حدث فى لمح البصر ، وقبل أن ينطلق المســدس أن أبصرت الرجل ذو الشعر الأحمر ينهض بسرعة ثم يقفـز من نافذة القطار وتطويه الظلمات المدلهمة ·

ورأيت صاحب المسدس ينظر الى النـافذة ثم يتنفس الصعداء ويقول :

ـ هذا واحد · الحمد لله · لقد وفر على مشقة اطلاق الرصاص · لا بد أن عظامه الآن تتهشم وتتفتت ··

ولأول مرة أبصر الرجل الرابع الذى كان يجلس فى مواجهتى يفتح عينيه ويقول بهدوء وسخرية :

ـ تتهشم وتتفتت أيها الأحمق ! ان القطار يســير ببطء · انه لا شك يقف الآن سليما معافى · اقفز وراءه وأرده قتيلا · لا تدع فرصة العمر تفلت منك ·

وفى ثانية أخرى أبصرت صاحب المسدس يقفز الى النافذة ثم يقذف منها نفسه صائحا :

ـ أجل · أجل · معك حق ·· لا بد أن أجهز عليه ·

وران الصمت ثانية ، ثم سمعت الرجل الباقى يتنفس الصعداء ويقول :

ـ الحمد لله على انه لا يعرف أوصاف الآثم الأول · لقد كان لا بد من ذهابه ، والا · من يدرى فقد تنبئه عجوز النحس بها ·· وتكون الطامة الكبرى ·· الحمد لله ·

ثم اغمض عينيه وعاود سباته العميق ·

وهززت رأسى فى دهش وساءلت نفسى :

ـ أهكذا دائما ينجو الآثم الأول ؟

رجـــل منتقم

ومضت لحظة من التردد والخوف وهو يقبض على عنق الشيخ ويضع يده على فمه ، خشية ان يكون العابر الجديد قد أبصره وهو يجذب الشيخ الى داخل القصب ٠

الليل حالك ٠٠ والظلمة شاملة ٠٠ والسكون سائد ٠٠ والصمت مخيم ٠

وما من صوت هناك الا فحيح الريح تدفع أمامها أطراف أعواد القصب ، فتميل أمامها فى أمواج متتابعة متتالية ٠

وبين الأعواد الخضر المتكاثفة ٠٠ أخذ شبح يتسلل فى الظلمة كأنه ذئب يسترق الخطى ٠

ولو استطعنا أن نكشف حجب الظلام لنستبين ملامحه لراعنا منه كثير من قسوة ، وكثير من عزم ، وكثير من شرود ٠

كان الرجل يوشك أن يبلغ هدفه ، هدف العمر الذى طالما حث الخطى للوصول اليه ٠٠ والذى تركزت لبلوغه جهوده وجهود أهله من قبله ، حتى أوشك هو أن يتم سعيه ولم يبق لتحقيق غرضه الا النزر اليسير ٠

أجل ! بعد طول السعى والكد والحل والترحال ٠٠ قد وصل أخيرا ولم يعد بينه وبين الثأر سوى خطوات معدودات قصار ٠

الثأر ! لم يتحرق اليه ؟ ويتلهف عليه ؟ انه يشعر بنشوة من مجرد الاحساس بأنه يوشك أن يقدم على تنفيذه ، والشعور بأن الساعة المرتقبة قد أزفت ، والأمل المرجو يوشك أن يتحقق ٠

ان السنين المتوالية لم تطفىء فى قلبه الحرقة المتأججة ، ولا استطاع الزمن أن يبرىء بالنسيان حزنا دفينا ، ولوعة كامنة ٠

انه يذكر أباه ومصرعه كما لو كان قد حدث بالآمس القريب ، يذكر رقدته على حافة القناة بين كوم الغاب والدماء الحارة القانية تنزف من جرح فى جانبه وتخضب ثيابه وهو يئن أنينا خافتا ، وأنفاسه تخرج من صدره ، متحشرجة متقطعة ٠

وفى صوت متهدج ٠٠ سأله أباه ألا يترك الثأر ٠٠ وأن يقتص من قاتله بيده ، وألا يدع دمه يضيع هدرا ٠

وكان يستمع الى أبيه مشدوها مذهولا لا يكاد يصدق عينيه ولا أذنيه ، ولم يملك أن يجيبه بغير الانحناء عليه وضمه الى صدره محاولا أن يبعد عنه عادية الموت ، سائلا اياه ألا يموت ويتركه وحده ٠

ولكن بعد لحظات لم يجد بين يديه سوى أذن صماء ٠٠ وفم صامت مطبق ٠٠ وأطراف متداعية متراخية ٠٠ وجثة مسجاة لا حراك بها ٠

كان وقتذاك صبيا غريرا ، ولم يكن له بعد أن ماتت أمه سوى أبيه العطوف الحنون ، ولم يكن يطوف بذهنه قط أن أباه يمكن أن يذهب عنه هكذا ــ فى مثل لمح البصر ــ ويتركه وحده ٠

وأحس بالمرارة تفيض بنفسه ٠٠ لقد كان يعلم بالعداوة القائمة بينهم وبين أسرة مجاورة ، وكان يعلم أن بين الأسرتين ثأرا قديما ،

ولكنه لم يخطر له على بال قط أن يذهب أبوه الطيب الكريم ضحيته !

ان اباه لم يرتكب اثما حتى يقع عليه القصاص ٠ ومن الظلم أن يحمل انسان جرم انسان آخر ٠

وجلس بجوار الجسد المسجى يبكيه بكاء مرا ، ثم أفاق لنفسه أخيرا فوجد أن البكاء لن يجدى نفعا ٠ فما هو بمعيد أبيه ، وما هو بمطفىء حرقته ٠

شىء واحد ٠٠ يستخلص لأبيه حقه ٠٠ وهو الذى يمكن أن يهبه العزاء ، وهو الثار !

انه لن يظلم أحدا كما ظلم أبوه ، ولن يأخذ بجرم القاتل انسانا بريئا ، بل سيوقع القصاص على القاتل نفسه !

ونهض من مكانه فى عزم وقوة ، ولم تشرق الشمس عليه الا وقد وارى اباه الثرى ٠٠ وطوى فى باطن الأرض كل أثر لمصرعه ٠

وأصبح أهل القرية ، فاذا بثلاثة منهم قد اختفوا من القرية وعفت آثارهم ، القتيل والقاتل والآخذ بالثار ٠٠ واحد يثوى ببطن الأرض ، واثنان يضربان متلاحقان فى ظاهرها ٠

لقد خرج يقتفى اثر غريمه ٠

ومنذ ذلك الحين وهو هائم شارد ، لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار ٠٠ وخرج بنفسه من زمرة الأحياء ٠٠ حتى بات كالشبح السارى أو الروح الضالة الهائمة ٠

ومرت السنون ، وهو يضرب هنا وهناك ، فى المشرق تارة وفى المغرب أخرى ٠٠ مقبل مرة ، مدبر مرة ، وفى كل خطوة يخطوها وفعل يأتيه ٠٠ ليس له من هدف سوى تعقب آثار غريمه والثار منه ٠

ولم يكن له من خطة أو تدبير ، فقد كان كل ما يهدف اليه هو أن يعثر عليه ٠٠ أما طريقة الثار فقد كانت عنده سهلة هينة ، لقد كان

مصـمما على أن يرديه صريعا أينما وحينما يجـده ، بلا تفكير ولا تدبير ٠

ان كل ما يريده هو أن يشفى غليله بقتله ، أما ما يحدث له بعد ذلك ، فكان أتفه من أن يفكر فيه ٠

ان مصير نفسه لم يكن يعنيه فى شيء ، أما مصير غريمه فكان هو كل شيء ٠٠ ان حياته لها قيمة ، لأنها ستضع حدا لحياة خصمة ٠٠ أما بعد ذلك ولغير ذلك ، فانها هباء فى هباء ٠

واستمرت المطاردة يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر وعاما بعد عام ، والحقد مستعر ، والضغينة متأججة ، لا هدوء ولا سكينة ، ولا نسيان ٠ كل تعب يهون ما دام يقربه من هدفه ، وكل شقاء وشظف فى العيش يحتمل ما دام يدنيه من بغيته ٠

وأخيرا ٠٠ وبعد طول صبر وأناة ، ورحيل ومهاجرة بلغ الهدف ٠ أو قل أصبح منه قاب قوسين أو أدنى ٠

لقد وجد الغريم فى النهاية بعد مضى هذه السنين الطويلة شيخا واهن العظم أشـيب الشعر ٠٠ ولكنـه كان هو ٠٠٠ هو الأمنية المنشودة ، والهدف المقصود ، الذى أجج الحقد ، والهب البغضاء ٠٠ المجرم القاتل ، الذى أردى أباه صريعا مضرجا بدمائه ، والذى افقده يانع عمره وأرقده بلا ذنب جثة هامدة بين الثرى ٠

لقد لقيه أخيرا بعد طول جهد وكثير مشقة وعناء ، وكان قمينا ، وهو المتحرق شوقا الى الثأر ، بأن يرديه قتيلا فى ساعته ٠٠

ولكنه لم يفعل !

لم يفعل ، وهو المتعجل المتلهف الذى كان يأكل صدره الحقد ، والذى لم يكن يبغى الا قتل غريمه بلا خطة ولا تدبير ولا تفكير فى الهروب ٠

لم يفعل ٠٠ وهو الذى كان لا يعنيه مصيره فى شىء ٠٠ بل كان مصير خصمه ــ أو انهاء مصيره ــ هو كل شىء ٠

لم يفعل لسبب واحد ، وهو أن مصيره هو قد أصبح يعنيه !

لم يفعل ، من أجل الأعين النجل ٠

الأعين النجل ! وجدائل الليل ! والوجه القمر ٠

كل ذلك قد جعله يعنى بمصيره ، وجعل لحياته قيمة ٠

لو لم يصادفها قبيل النهاية لكان كل شىء قد انتهى ولكان القاتل قد لقى حتفه ٠ ولكان هو يقف فى شجاعة وهدوء ليقول للملأ : « أنا الذى قتلته لأنه قتل أبى ٠٠ لقد أخذته بذنبه ، وأخذ هو أبى بلا ذنب ٠٠ افعلوا بى ما شئتم ، خذوا حياتى ، فقد فعلت بها ما أردت ٠٠ أما ما تبقى فما عاد يعنينى فى شىء » ٠

لقد كان حريا بأن يفعل ذلك ، ويقول ذلك ٠٠ أما الآن وقد لقيها ٠٠ أما الآن وقد أضحى ما تبقى من حياته يعنيه كما عناه ما سلف منها ٠٠ أما الآن ومصيره لم يعد ملكه بل أضحى ملكهما معا ، فقد كان أجبن ــ أو أعقل ــ من أن يفعل ٠

لقد كان عليه أن يتروى ويتأنى ٠

ان الثأر لا بد منه ، وقد بات فى يده ، ولكنه لم يكن هناك مبرر لأن يلقى بنفسه الى التهلكة ، اذا كان يستطيع أن يبلغ أمنيته وهو فى مأمن ، ويردى خصمه وهو بمنجاة من العقاب ٠

كان الأمر سهلا ٠٠ فقد كان يستطيع ان يتصيد غريمه فى حلكة الليل وهو عائد وحده الى داره بعد أن عرف موعده وعرف خط سيره وطريق مروره ٠

كان عليه أن يختبىء بجوار الساقية القديمة وسط أعواد القصب المتكاثفة ٠ فاذا ما مر به الرجل فى الطريق الضيق الذى يمر وسط

حقل القصب ، فليس عليه الا أن يمد يده فيمسك بعنقه ويضغط علي حتى يكتم أنفاسه ثم يلقى به فى الساقية القديمة الخربة •

وينطلق بعد ذلك لينعم معها بحياة هادئة ناعمة •

ودنت الساعة الرهيبة التى طال به انتظارها ، وأقبل الليل يرخى سدوله على الجريمة التى توشك أن تقع ، وسار متسللا بين أعواد القصب • وقد طافت بذهنه كل الذكريات الذاهبة ، وتراءت له عينا أبيه الخابيتان وصوته المتهدج يدعو للثار ، وتراءت له بجوارهما الأعين النجل ، والصوت الناعم يدعوه لأن يترفق بنفسه •• وأن يذكر أن مصيره ليس ملكه •

واقترب من الساقية •• وخفق قلبه •• وهو الشجاع القوى •• وارتجفت أطرافه وهو الصلب الجرىء ، الثابت الجنان ، وهبت الريح فبعث فحيحها فى نفسه نوعا من الهلع لم يدر علته ، ولكنه تمالك وتماسك ، وهدأ من روعه ، وأزال من رهبته •

وجلس بين الأعواد الخضر يرقب وينتظر •

وزاده الانتظار قلقا ورهبة ، ولكنه عاد يطمئن نفسه •

بضع دقائق أخرى ويستريح من عبئه •• بضع دقائق ويفى بوعده لأبيه •• ويجعله يستريح فى قبره •• بعد طول انتظار •

لقد بات الطير فى يده ، ولم تعد هناك قوة على الأرض تستطيع أن تجعله يفلت من مصيره المحتوم •

وأخذت الدقائق تمر طويلة مملة حتى خيل اليه أن الرجل قد عدل عن العودة أو غير طريقه •

ومد رأسه من خلال القصب يستطلع الطريق ، ولكن الظلمة كانت حالكة ، وكان موقفه بجوار الساقية فى منحنى الطريق ، فهو لا يستطيع أن يبصر القادم الا بعد أن يلف مع الطريق ، ويصبح على قاب شبرين أو أدنى ••

وفجاة سمع وقع اقدام تقترب فأخفى رأسه بين الأعواد وأخلد الى الصمت حتى كاد يوقف أنفاسه ٠

وازدادت الخطوات اقترابا ، خطوات متثاقلة تصحبها عصا هى بلا شك عصا الشيخ ٠

أجل ! أجل ! انه هو بعينه ٠٠

وأخيرا وصل الشيخ قبالته ، وتحقق هو من وجهه ومشيته ٠

وفى خفة الثعلب مد يده فقبض بها على عنقه ثم جذبه الى الداخل واضعا اليد الأخرى على فمه ٠

وقبل أن يبدأ فى الضغط على عنقه ، وصل الى اذنه صوت أقدام أخرى ٠٠ أسرع سيرا وأخف وقعا ، كأن هنـــاك من يريد اللحاق بالشيخ ٠

ومضت لحظة من التردد والخوف وهو يقبض على عنق الشيخ ويضع يده على فمه ، خشية أن يكون العابر الجديد قد أبصره وهو يجذب الشيخ الى داخل القصب ٠٠ ولكنه سرعان ما تغلب على تردده وخوفه ، وصمم على أن ينجز مهمته فى حزم وسرعة ٠

وبدأ فى الضغط والخطوات تزداد اقترابا ، حتى بدا وكأنهـا اجتازت منحنى الطريق وأنها قد شارفت مكمنها ٠٠ وفجأة سمع صوتا نسائيا ناعما يشق أجواز الفضاء ، ويصيح مناديا فى لهفة :

ــ آبا ٠٠ آبا !

وبدا كأن صاحبة الصوت كانت تسير وراء الشيخ محاولة اللحاق به ، وأنها افتقدته فجأة ، وتبينت اختفاءه بعـد منحنى الطريق ، فصاحت تناديه ٠

ووقع الصوت فى مسمعه وقعا مخيفا مروعا ، لا لمجرد احساسه بأنه صادر من ابنة تستدعى أبا يوشك هو أن يرديه صريعا ٠٠

ولا لأن الصوت كان مفاجئا وسط ذلك السكون المخيف ٠٠

بل لسبب أكبر من هذا ٠

لقد كان الصوت ، صوتا مميزا عنده ، صوتا لا يخطئه ، كان صوت الأعين النجل ·· ذلك الصوت الناعم الرقيق ·· الذى كان يدعوه دائما لأن يترفق بنفسه ويذكر أن مصيره لم يعد ملكه !

لقد كان الصوت الآن يدعوه لأن يترفق بغريمه وأن يهبه مصيره بعد أن أصبح فى يده ، ويترك الثأر الذى أمضى العمر فى الجرى وراءه !

ومضت لحظة وهو قابض على عنق الرجل ·· ورويدا رويدا بدا ضغط أصابعه يخف ، واستطاع الرجل أن يتنفس وأن يتكلم ، فصرخ مستنجدا بابنته :

واندفعت الابنة لتنجد أباها ·

ووقف الاثنان وجها لوجه ·· وما زالت أصابعه قابضة على عنق الشيخ ·· وما زال ذهنه حائرا يتخبط بين ثأر أبيه ، وبين الأعين النجل المتوسلة اليه ·

لم يكن فى استطاعته التحدث ·· فلقد بهره صوتها ·· وسحرته عيناها ·

وترك الشيخ يفلت من يده ·

ونظر الى الفتاة وقال هامسا :

ـ كنت أعتقد أنه ما من قوة على الأرض تستطيع أن تنجى قاتل أبى من قبضة يدى ·· أو أن تثنينى عن أخذ الثأر ·· ولكنى لم أكن أعرف قوة تلك الأعين النجل ، عندما تتوسل ، ولم أكن أظن أننى سأصبح يوما من قوم الشاعر القائل :

نحن قوم تذيبنا الأعين النـ جل على أننا نذيب الحديدا

وهكذا جرف تيار الحب صخور البغضاء ، وعفا صاحب الثأر عن غريمه وعنقه بين أصابعه ·

وتزوج الرجل ابنة غريمه ·· ووضع حدا لخصومة دهر وعداوة عمر

رجـــل قـــاتـــل

لا اظنني بمستطيع أن أصـف لك الصدمة المروعة التى أصابتنى بعد أن قرأت خبر انتحارها ٠

وانى لا أخشى أن اتهم بشيء فلا أظن أن هنـاك من سيفكر فى القاء التهمة على ٠

هل أنا المجرم الأول ؟

و « أنا » هذه بالطبع غير عائدة على ٠٠ فما أنا بمجرم أول ولا ثان ولا ثالث ٠٠ وما كانت لى بالجريمة المعروضة أية صلة ٠٠ سوى صلة العرض والنصح ٠

أما صاحب الرسالة ٠٠ وصاحب السؤال ، وصاحب الجريمة ٠٠ فهو الأخ « ع ٠ ح » الطالب بأحد المعاهد الأمريكية ٠

ولقد كتب الى من أمريكا ٠٠ ليطلب المشورة ، ولمحت على الظرف طابع بريد الولايات المتحدة وختم بريد بنجامتون ٠٠ ولست أدرى جنسيته بوجه التحديد ٠٠ وان كنت أرجح أنه عراقى ٠٠ فقد كتب الى خطابه بتاريخ (٥ آب ١٩٥٠) وأنا دائما يصلنى من أهل العراق

خطابات مؤرخة بآب وآذار وغيرها من الشهور المحيرة التى حاولت حفظها عبثا ٠

★ ★ ★

وقرأت رسالة الأخ وتوقفت أمام الخاتمة التى قال فيها :

« كم أتمنى أن تجيبنى على سـؤال يكاد يكتم أنفاسى ويرهق حواسى ٠ هل أنا المجرم الأول المسؤول عن مصرعها ؟ أم أن دورى لم يكن سوى دور ثانوى ٠٠ جعلته المصادفات يبدو رئيسيا ودفعته الظروف الى أن يحتل فيها مكان الصدارة ؟ ! أجبنى صراحة فانى أرزح تحت عبء من الشك ثقيل مخيف ينوء به كاهلى وينقض به ظهرى ٠

لن أعطيك عنوانى ٠ فلست أريد ردا خاصا ٠٠ بل دعها تكون قضية عامة يشترك فيها قراؤك ٠٠ ولا أظن هناك مانعا لدى من نشر كل ماكتبت لك ٠٠ ومع أى تحوير أو تصـليح تود اجراءه بشرط واحد ، وهو أن تبقى على أساس القصة » ٠

ولست أظننى الا مجيبا الأخ الى مطلبه فى نشر رسالته بلا تحوير ولا تعديل ٠٠ اللهم الا اضافة بعض التفاصيل ، التى تشوق القارىء ، والتى أبى هو ذكرها فى رسالته المقتضبة خوفا من الملل ٠

ولقد اعتمدت فى روايتها على التجارب والخيال ٠٠ فعسى ألا أكون قد جانبت الحقيقة ٠٠ فان كنت ٠٠ فليعذرنى ٠٠ وليعتبر هذه الاضافة من باب التحوير والتعديل الذى سمح هو به ، وليتفضل بعد ذلك مشكورا ــ ان كان ينوى ان يقدم على جريمة أخرى ــ أن يرسل لى كل التفاصيل عن جريمته الجديدة ، وليتفضل كذلك كل قارىء غيره يسألنى عرض قضيته ويطلب الشورى أن يذكر هذه التفاصيل التى قد يعتبرها تافهة بلا خوف من ملل او خشية من اسهاب ٠

★ ★ ★

ساكتب لك قصة حقيقية جرت حوادثها لغريب فى أمريكا ووضع القدر خاتمتها منذ ايام قلائل ٠٠ أو يبدو أنه قد وضعها ، وان كان الشك يساورنى فى أنه ما زال لها بقية ٠

انها قصة طالب من الشرق وفتاة من الغرب ، الف بينهما ما لا يقف فى سبيله شرق ولا غرب ٠٠ ولا يعترف بتقاليد ولا أجناس ولا أديان ٠

الف بينهما جامح جارف جبار ٠ جامح من الهوى ٠ جارف من الغرام ٠ جبار من الحب ٠

لقيتها ذات مرة ٠٠ كيف ٠ ؟ وأين ٠ ؟ ومتى ٠ ؟

وماذا تهم هذه الأشياء التافهة القيمة بالنسبة للقاء فعلا ٠٠ ؟

ان الزمن والمكان والظروف لم تعد لها قيمتها فى حب العالم الجديد ٠٠ العالم الصاخب السريع ٠

لم القها بالطبع فى روضة غناء فيحاء ، ذات ليلة هادئة النسيم ، خفاقة النجوم ، يسترق القمر فيها الخطى خلف منثور السحاب فيرسل أشعته فضية متقطعة ٠

لم القها بين عبق الزهور وشدو الطيور وحفيف الورق وترنيم الورق !

لم القها بين شيء من هذا كله ٠٠ فلا فجر ولا سحر ولا طير ولا زهر ، ولا أى أثر لهذه الأشياء التى تخرج بها جوك الشاعرى فى قصصك الغرامية ٠

لم القها فى جو شاعرى ٠٠ بل لقيتها فى جو عادى ملىء بالصخب والضجيج والزحام والمارة والحركة والأصوات المتنافرة ٠

ومع ذلك فقد ارهفت مشاعرنا ٠٠ تماما كما لو كان اللقاء فى الروضة تحت القمر وبين الزهور ٠

ان كل هذه اشياء مساعدة أما الأصل ٠٠ أصل الهوى والجوى

فكامن فى الصدور راقد بين الحنايا ، ولو وضع العشاق فى الجحيم لما كفت قلوبهم عن الحب ·

قرب اللقاء العابر بيننا ·· بأسرع مما يتصور انسان ·· فقد صادف كل منا هوى فى نفس صاحبه ، وكأننا قطبان مغناطيسيان متضادان ·· لم يكادا يتقاربان حتى اندفع كل منهما تجاه الآخر ·

وافترقنا على موعد ·· ثم التقينا فى الموعد ·· وقضينا معا فى نيويورك يومين وليلتين لم يشعر أحدنا خلالهما انه يصاحب غريبا فرقت بينهما المولد والنشأة والتربية والجنس والدين ·· ولم يلتق واياه بالأمس القريب ·· بل كان يحس كل منا لصاحبه أنه رفيق عمر وزميل صبا ·

لقد قضينا معا فترة مليئة بالبشر ، حافلة بالأنس والمتعة ، فترة مختلسة من السعادة ، مسروقة من النعيم ·· نلت خلالها من الفتاة أقصى ما يريد رجل من امرأة ثم عدت بها فى النهاية الى بلدتها وأنا متخم ريان ·

ولا أكذبك القول اذا ما قلت لك انها لم تكن المغامرة الأولى ، بل ان مجرد قولى عنها مغامرة يعتبر مغالاة فى القـــول · فهذه النزهات مع الفتيات الامريكيات كانت أشياء طبيعية متكررة دائمة الحدوث · وكنت أقضى معهن يوما أو يومين ثم أعود بهن الى دورهن أو بلدتهن · فأودعهن وينتهى بعد ذلك كل ما بيننا ونفترق كأن لم يكن بيننا لقاء ولا صلة ·

لقد كانت صحبتى لهن دائما تنتهى بفرقة عاجلة ·· فانى بطبعى سريع الملل ·· لا أكاد أنال منهن مأربى واقضى وطرى حتى يضيق صدرى بهن ، وتتملكنى السأمة من صحبتهن فأسرع بفراقهن ·

أما هذه ·· فلدهشتى الشديدة ·· لم تكن كالسابقات ·

لقد لقيتها كما لقيتهن ·· وفعلت بها ما فعلت بهن ·· ومع ذلك

فما ضاق صدرى بها ولا أصابنى منها ملل ولا سأمة ٠٠ ولولا رغبتها فى العودة لما رضيت بفرقتها ٠

على النقيض ٠٠ انى لم أكد أنال منها ما نلت ٠٠ حتى ازدادت رغبتى فيها ، واشتدت لهفتى عليها ٠٠ واستعر فى قلبى الشوق وتأجج الحنين ، ولم أفارقها الا وأنا كاره للفرقة مشفق على نفسى منها ٠

وودعتها مرغما ٠٠ ودعتها جسدا ٠٠ ولكنى لم أودعها قلبا ولا ذهنا ٠٠ فقد أبت صورتها أن تفارق ذهنى ٠٠ وأبى رسمها أن يودع قلبى ، وظلت على البعد باقية حاضرة تلح ذكراها على نفسى ٠٠ ويملأ طيفها رأسى ويملك تفكيرى ٠

ووجدتنى أفكر فى مسألتها تفكيرا جديا ، واسمو بها فى هذا التفكير عن كل من لقيت من غيرها من الصاحبات العابرات ، وأجعل منها نسيج وحدها . ويزداد بى التفكير يوما بعد يوم ٠٠ ويشتد الحب والشوق ٠٠ وتزداد خطوط رسمها عمقا فى قلبى وفى ذهنى حتى تبيت وكأنها جزءا منى لا يتجزأ . وتصبح لدى شيئا حيويا ، وانتهى بى الأمر الى أن تركز تفكيرى فى نقطة واحدة ٠٠ وهى الزواج ٠

أجل لقد سموت بها فى تفكيرى ٠٠ حتى وضعتها منى موضع شريكة العمر ٠٠ وتوأم النفس ٠

وذهبت الى بيتها بعد أن عقدت النية على التقدم لخطبتها ٠

وفى بيتها لقيتنى مرحبة هاشة باشة ٠٠ وقدمت الى شابا فى ثياب جنود فرقة الـ « مرنيه » ٠

قدمته الى على أنه فتاها ٠٠ أو كما يقولون هنا : عشيقها ٠

وباستفسار بسيط علمت أنها تعرفه منذ شهور طويلة . وأنهما متفقان على الزواج منذ زمن ٠

واصابتنى من قولها صدمة شديدة ٠٠ واحسست فى صدرى بخليط صاخب من الغضب والغيرة والفجيعة واليأس ٠

وقد أكون خاطئا فى غضبى وفى فجيعتى ٠٠ وقد تكون المسألة برمتها شيئا طبيعيا ٠٠ كان يجب أن أنتظره وأتوقعه لا سيما ونحن فى بلد التحرر والانطلاق ٠٠ ولا سيما وأنا نفسى أنال ما أناله من الفتيات بمنتهى السهولة ٠

ولكن ماذا اقول للقلب الأحمق المجنون ٠٠ الذى أبى الا أن ينطلق وراءها ويتشبث بها ٠٠ ويجعل منها شيئا ملكا له خاصا به ؟ !

ماذا أقول فى النفس اللهفى والذهن المخدوع ال ـاهل ٠٠ الذى أبى الا أن يصور منها مخلوقة سامية لم تقع الا فى حبائله ولم تفرط الا له ؟

لقد كانت الصدمة شديدة والطعنة قاسية ٠٠ لا لأن الفتاة ظهرت لى بما لا يجب أن تكون عليه ٠٠ بل لأنها ظهرت لى كما لم يصورها به الذهن ٠٠ انها هدمت قصور أوهامى ٠٠ وقوضت عرش أمانى ٠٠ وخذلت مشروعاتى خذلانا شديدا ٠

ولم أفاتحها بالطبع فى خطبة ولا زواج ٠٠ بل مكثت عندها هنيهة واجما مطرقا شاردا ٠٠ ثم ودعتها وانصرفت ٠

وعدت الى دارى مثقل النفس بالهموم والأحزان ، متعب الذهن ، مكروب الصدر ، وقضيت الليل مسهدا أتململ على الفراش أزفر جوى ووجدا ٠

وفى الصباح استقر بى الرأى على أن ألقى تلك الجمرات التى تتأجج فى صدرى ، وأن أذهب اليها فأفضى اليها بكل ما فى نفسى وألقى اليها برأيى فيها ٠٠ وألطمها كما لطمتنى ٠

وذهبت اليها ٠٠ فلقيتنى بنفس البشاشة والترحيب ، وخلوت بها،

وبدأتنى بالسؤال عن سبب ذلك الحزن والوجوم البادى على وجهى فقلت لها فى صوت مرتجف :

ـ أنت السبب ·

ـ أنا ؟ ·

ـ أجل أنت ·

ـ انى لا أذكر انى فعلت ما يغضبك ! ·

ـ بل فعليت ما مزقنى وحطمنى ·· لقد خدعتنى وغررت بى ·· لقد بدوت لى أسمى واطهر وأجمل قلبا من سواك ·· فوجدت نفسى اتردى فى هاوية حبك وأتشبث بك تشبث غريق بلوح من حطام سفينة ·· واتعلق بك تعلق مجنون ·· لقد غررت بى فى اليومين اللذين صحبتك فيهما ومنحتنى ما ظننت أنك خصصتنى به وحدى ، وبدا لى أنك أحببتنى كما أحببتك ولم يخطر ببالى انك مخطوبة توشكين على الزواج ·· حتى أتيت بالأمس لأسالك الزواج منى ، ولكنى وجدت أننى كنت عندك مجرد أداة لهو وتسلية ·· وان صحبتك لى كانت احدى الخيانات المتكررة التى تهدينها الى فتاك المحبوب وخطيبك العزيز ·· لقد جئتك لأقول لك حقيقة رأيى فيك ولأعتذر لك عن الحمق الذى دفعنى الى أن أتوهمك بتلك الصورة التى توهمتك بها ·· وعن الغرور الذى دفعنى الى أن أجعل منك نسيج وحدك ·· وشيئا نقيا غير هذه القذارة التى خلقت منها انت وسواك ·

وبهتت الفتاة ، ولم تنبس ببنت شفة ووجدتها تطرق برأسها ، وخيل الى أنى ألمح فى عينيها طبقة من الدموع تترقرق ·

أقول خيل الى ·· فقد يكون ما رأيت سراب مخدوع ·

وغادرتها بلا كلمة ·· ولا تحية ·

وسرت فى الطريق ، وأنا شاعر بأنى قد ألقيت عن كاهلى ما أثقله، وعن صدرى ما أحرقه وأججه ·

أجل ! لقد انتهى أمرى معهـا ، واستطعت أن ألفظ حبهـا مع الجمرات التى لفظتها من صدرى ٠

وتركت المدينة ذلك المساء عائدا الى مكان دراستى ٠٠ موقنا بأن القصة قد وصلت الى نهايتها ، وانى وضعت بثورتى عليها خاتمة لها ، ولكننى استيقظت فى الصباح لأقرأ فى احدى جرائد نيويورك ٠٠ ان الفتاة (ا ٠ س) وعمرها تسع عشرة سنة من كلية شيديور قد انتحرت باطلاق النار على نفسها فى الســاعة السادسة من صباح الأمس أى بعد مغادرتى اياها بمدة لا تتجاوز الاثنتى عشرة ساعة ٠٠ وقيل فى خبر الانتحار أن الأسباب لا تزال مجهولة ، ولكن المعتقد أنها متعلقة بخلاف مع أحد أصحابها العديدين وقد أصيبت بعده بنـوبة يأس جعلتها تقدم على الانتحار ٠٠ وقد وجهت الصحيفة نداء الى كل من زارها أو قابلها فى اليوم السابق للانتحار للاتصال بالمحقق ٠

ولا أظننى بمستطيع أن أصف لك الصدمة المروعة التى أصابتنى بعد أن قرأت الخبر ٠

وانى لا أخشى أن اتهم بشىء ٠٠ فلا أظن أن هناك من سيفكر فى القاء التهمة على ٠٠ بل لا أظننى سأخطر قط ببال أحد ممن حولها ، فما كانت علاقتى بها فى نظرهم سوى علاقة عابرة طارئة ٠

ليس هناك أحد يمكن أن يتهمنى ٠٠ الا انسان واحد هو أنا ٠

انا يا أخى حزين ونادم ويائس ٠

حزين عليها لأنى ما زلت أحبها ٠٠ لقد تبدد من نفسى كل غضب عليها ٠٠ بعد أن ذهبت من دنيانا هــذه ٠٠ وأصبحت أتلهف على رؤيتها وتقبيل يدها مرة واحدة ٠٠ وأتمنى أن أجثـو على جدثها فأذرف عليه الدمع مدرارا ٠

ونادم ٠٠ لأنى أشعر بينى وبين نفسى ٠٠ أننى السبب فى موتها أتراه الغرور الذى يدفعنى الى هذا الاحساس ؟

أتراها كانت تحبنى وانى نزلت من نفسها منزلة من يدفعها غضبه عليها الى الانتحار ؟

مهما يكن الأمر ٠٠ ومغرورا كنت أم غير مغرور ٠٠ فان ندمى شديد لأنى واثق من أنه حتى ولو لم أكن الوحيد فى حياتها الذى وهبته نفسها ، والذى فتحت له قلبها ، فاننى كنت الوحيد الذى صدمها برأيه فيها ٠٠ والذى واجهها بحقيقة صورتها ٠

وانى يائس ٠٠ لأنى لا أستطيع أن أفعل شيئا ٠

فلا أنا بمستطيع اعادتها الى حياتها ٠٠ ولا أنا بمستطيع أن اسلو حبها وأنساها ٠٠ ولا أنا بمستطيع أن أكفر عن خطيئتى ٠٠ بل ٠٠ حتى هذه الخطيئة ٠٠٠

لست بمستطيع أن أقنع بها نفسى ٠

هل أخطأت ؟

هل كنت السبب فى قتلها ؟

هل كانت ثورتى عليها هى التى أودت بها ؟

هل ترانى كنت حقا شيئا هاما الى هذه الدرجة ؟

هل أنا المجرم الأول ؟

أجبنى يا سيدى ٠٠ انى حائر تعس ٠

أكره أن أكون المجرم ٠٠ وأحب أن أكونه ٠

أكره أن أكون المجرم ٠٠ لأنى أكره الاجرام ٠٠ ولأنى أكره أن أكون السبب فى قتل هذه النفس الحلوة التى شغفت بها حبا ٠

ولكنى أعود فاتمنى أن أكون المجرم ٠٠ اتمنى أن أكون حقا الانسان المهم فى حياتها والذى احبته الى الدرجة التى يدفعها غضبه عليها الى الانتحار ٠

أتمنى أن أكون كذلك ٠٠ حتى أوقن أنها كانت تحبنى ، والا يكون

انتحارها من أجل مخلوق آخر فى حياتها ·· لا أعلم عنه شيئا ··
والا أكون لديهم الا نسيا منسيًا ·

أجبنى يا سيدى ·· أرحنى !

هل أنا المجرم الأول ؟

ليتنى أكونه ·

المخلص

ع · ح

★ ★ ★

يا أخى ماذا أقول لك ·· وأنت تتمنى أن تكون مجرما ·· حتى
ترضى غرورك وكبرياءك ؟

خل عنك أوهامك ··

أرح نفسك وانسها ·· غفر الله لك ·· ولها · وللمجرم الحقيقى ·

رقم الايداع ٧٤٢٢/ ٨٦

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٢٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه